علم الفقه

سلسلة مداخل العلوم

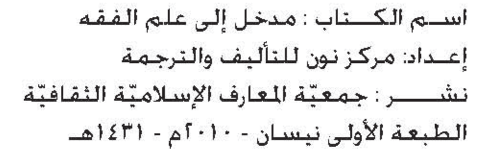


الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org





مدخل إلى علم الفقه



اسم الكتاب : مدخل إلى علم الفقه

إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة

نشر : جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة الأولى نيسان - ٢٠١٠م - ١٤٣١هـ



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام

تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142

www.almaaref.org

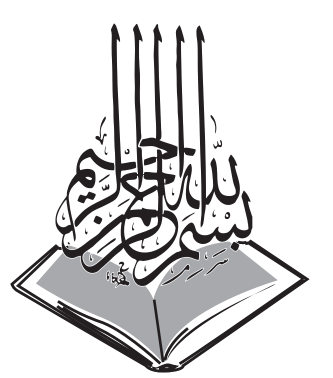
Email:info@almaaref.org

سلسلة مداخل العلوم

مدخل
إلى علم الفقه

إعداد
مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



الفهرس



الدرس الثالث

الدرس الرابع

الدرس الخامس

الدرس السادس

الدرس السابع

الدرس الثامن



الدرس التاسع

الدرس العاشر

الدرس الحادي عشر

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

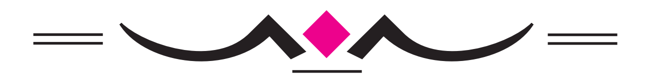
وبعـد اتساع نطاق هذه العلوم وتشعّبهـا أصبح من الضروريّ جدّاً وجود ما يقدّم لمحةً عن العلوم الإسلاميّة، بذكر مقدّمات كلّ علم، وفترة وأسباب نشوئه، وتطوّره، والأسلـوب المتّبع فيـه، وأهمّ أبحاثه وكتبـه والعلماء المؤسّسين لـه، ومدى الحاجة إليـه والاستفـادة منه، وقد اصطلح على هذا النحو مـن المعرفة اسم مداخل العلوم الإسلاميّة.

وبعـد أن رأى مركز نـون الحاجة إلى كتابة كتاب مستقـلٍّ لمداخل العلوم، قام بتدويـن مدخلٍ لـكلٍّ من الفلسفة والفقه والأصول والـكلام الإسلاميّ، ويعمل على كتابة مدخل إلى العرفان وغيره من مداخل العلوم معتمداً على عددٍ من المصادر والمراجـع المختصّة في مجالها، سائـلاً المولى أن يكون قد ملأ فراغاً في مجال المعـارف، راجياً من الله أن يلقى قبولاً لدى طـلاب المعرفة والحوزات والمعاهد الإسلاميّة.

إنّه نِعم المولى ونِعم المجيب.

مركز نون للتأليف والترجمة

سلسلة
مداخل العلوم



مدخل
إلى علم الفقه



الدرس الأوّل

ما هو علم الفقه؟



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى المعنى اللغوي والإصطلاحي للفقه.

٢. أن يدرك الحاجة إلى علم الفقه.





تمهيد

يعتبــر علم الفقه من أهمّ العلوم الإسلاميّة، وأقدمها تاريخاً، وأوسعها مادّةً، وأكثرها تشعّباً. وقد نشأ هذا العلم في صدر الإسلام واستمرّ إلى يومنا الحاضر، وبرز فيه فقهاءٌ كثيرون، منهم عباقرةٌ مبدعون، ألّفوا وصنّفوا كتباً فقهيّةً لا يمكن حصرها لكثرتها. وما ذلك إلا لشدّة العناية بهذا العلم من قبل علماء المسلمين، وما له من أهميّة بالغة بنظرهم. فهو العلم الذي يبحث عن جميع مسائل الحياة الاجتماعيّة، ويحدّد الموقف الشرعيّ تجاهها، وقد قالوا «**إنّه لا تخلو واقعةٌ من حكمٍ**»، ولو على مستوى تحديد الوظيفة العمليّة. فإذا كان كذلك؛ فهو علمٌ يبحث عـن كثيرٍ من الفروع والدقائق، عن موقف الإنسان من نفسه ومن ربّه ومن أخيه الإنســان، حقوقاً وملزِمــات، وآداباً ومستحبّات أو مكروهــات. وهذا يعني شمول كلّ حـركات وسكنات الإنسان، وما يبحثه العلــم المعاصر تحت عنوان الحقوق: الأساسيّــة، والأسريّة، والجزائيّة، والإداريّــة، والسياسيّة، والمدنيّة، حتّى حقوق الإنسان أو حقوق الحيوان، وغيرها، كلّ ذلك تجده منتشراً في الأبواب الفقهيّة، مـع زيادةٍ في الفقــه، وهي أنّه يبحث عن أشياء لا تجدها في علمٍ غيره، كالبحث عن علاقة الإنسان بربّه وما يفرضه عليه من طاعاتٍ، وينهاه عن محرّمات، وهو ما يعبّر عنه ببحث العبادات، فهذا النوع من الأبحاث من مختصّات علم الفقه، ولا يوجد في أيّ مجالٍ علميٍّ آخر.

١ ـ الفقه في اللغة:

قال في النهاية: «... **الفقه في الأصل: الفهم، .... يقال : فقِه الرجل بالكسر . يفقِه فقهاً إذا فهم وعلم ، وفقُه بالضم يفقُه: إذا صار فقيهاً عالماً**»[١].

وفي لسان العرب:«**الفقه العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم**»[٢]. فالفقه يعني الفهم والعلم.

أ – **والقرآن الكريم**: استعمل كلمة الفقه في موارد متعدّدةٍ، وأراد منها المعنى اللغوي:

قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[٣].

﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٤]. قال في منية المريد: «**والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم المدوّن ... وإنّما العلم المهمّ هو معرفة سلوك الطريق إلى الله تعالى، وقطع عقبات القلب، التي هي الصفات المذمومة، وهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى، ... ومن ثمّ كان العلم موجباً للخشية، بل هي منحصرةٌ في العالِم كما نبّه عليه تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٥]، أعمّ من أن يكونوا فقهاء أو غير فقهاء**»[٦].

---

(١) ابن الأثير (ت: ٦٠٦ هـ) : النهاية في غريب الحديث/ تحقيق طاهر أحمد الزاوي/ الناشر مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر، قم ـ إيران، ط. الرابعة ١٣٦٤ هـ ش./ مادة فقه: ج ٣ ص ٤٦٥.

(٢) ابن منظور (ت: ٧١١ هـ): لسان العرب/ نشر أدب الحوزة، قم ـ إيران، ط. ١٤٠٥ هـ/ مادة فقه ج ١٣ ص ٥٢٢، مجمع البحرين، ج٣– ص٤٢١.

(٣) سورة الأعراف: من الآية١٧٩.

(٤) سورة التوبة: من الآية١٢٢.

(٥) سورة فاطر: من الآية٢٨.

(٦) الشهيد الثاني زين الدين بن علي(ت:٩٦٥ هـ): منية المريد/ تحقيق رضا المختاري/ الناشر مكتب الإعلام الإسلاميّ، إيران/ ط. الأولى ١٤٠٩ هـ /ص ١٥٧.

- ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[(١)].

- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾[(٢)] .

ب - والحديث كذلك استعمل الكلمة بمعناها اللغويّ:

- فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم **: «من حفظ من أمّتي أربعين حديثاً ممّا يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»**[(٣)].

- وعن حنان بن سدير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **«من حفظ عنّا أربعين حديثاً من أحاديثنا في الحلال والحرام بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً ولم يعذّبه»**[(٤)]

. وعن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:**«ليت السياط على رؤوس أصحابي حتّى يتفقّهوا في الحلال والحرام»**[(٥)].

. وعن داود بن سرحان قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يكيل تمراً بيده، فقلت: جعلت فداك، لو أمرتَ بعض ولدك، أو بعض مواليك فيكفيك، فقال: يا داود إنّه لا يصلح المرء المسلم إلا ثلاثة: التفقّه في الدين، والصبر على النائبة، وحسن التقدير في المعيشة»[(٦)].

٢ ـ الفقه اصطلاحاً:

ثمّ استعمل هذا التعبير بعد فترةٍ في روايات عن أهل البيت عليهم السلام وكان يراد

---

(١) سورة طه: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) هود: من الآية٩١.

(٣) الصدوق: (ت: ٣٨١ هـ) الخصال/ تحقيق علي أكبر الغفاري/ منشورات جامعة المدرسين، قم ـ إيران، ط. ١٤٠٣ هـ/ ص٥٤١. وراجع: الحرّ العامليّ (ت: ١١٠٤ هـ): وسائل الشيعة/ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران، ط. الثانية ١٤١٤ هـ/ باب وجوب العمل بأحاديث النبيّ ج ٢٧ ح ٧٢ ص ٩٩.

(٤) م.ن. ص ٥٤٢.

(٥) البرقي (ت:٢٧٤ هـ) ـ أحمد بن محمد: المحاسن/ تعليق جلال الدين الحسيني/ دار الكتب الإسلاميّة/ طهران ـ إيران، ط. ١٣٧٠ هـ / ج ١ ص ٢٢٩.

(٦) الكليني: (ت: ٣٢٩ هـ): الكافي/ تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ط. الثالثة ١٣٦٧ هـ ش./ ج ٥ الحديث ٤ ص ٨٧.

منــه العلم بالأحــكام الشرعيّة؛ ففي الرواية عن مصادف قــال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: تحجّ المرأة عن الرجل؟ قال: نعم إذا كانت فقيهةً مسلمةً وكانت قد حجّت، ربّ امرأةٍ خيـرٌ من رجل»[1]. قال الشيخ الطوسي في ذيل هذه الرواية: فشــرط في جواز حجّتها مجموع الشرطين: الفقه بمناسك الحجّ، وأن تكون قد حجّت فيجب اعتبارهما معاً.

وعلــى هذا الاصطلاح الدارج في العرف، نجــد العلماء قد عرّفوا الفقه بأنّه: «**العلـم بالأحـكام الشرعيّة العمليّـة عن أدلّتهـا التفصيليّة لتحصيـل السعادة الأخرويّة**»[2].

الحاجة إلى علم الفقه:

بعد أن يؤمن الإنسان بالله سبحانه وتعالى ويقرّ له بالعبوديّة، ويؤمن بالدين الإسلامــيّ، ويعلم أنّ لهذا الدين شريعةً يجب عليه اتباعها، وامتثال أحكام الله تعالى فيها، يصبح لزاماً عليه - وفقاً لعبوديّته - التوفيق بين سلوكه في مختلف مجالات الحياة والشريعة الإسلاميّة، ومدعوّاً بحكم عقله إلى بناء كلّ تصرّفاته الخاصّــة وعلاقاته مع الأفراد الآخرين علــى أساسها. ولهذا كان من الضروريّ علــى الإنسان المؤمن أن يعيّن - في كلّ شأنٍ من شؤون الحياة - الموقفَ العمليَّ الــذي تفرضه عليه هذه التبعيّة للشريعة الإسلاميّــة، ويحدّد هل يفعل أو يترك؟ وهل يتصــرّف بهذه الطريقة أو بتلك؟ وإذا حدّد موقفــه والتزم بتكليفه استحقّ الجنّة التي وعد الله بها عباده المطيعين والمتقين، وبذلك يكون قد حقّق السعادة الأبديّة.

(١) الطوسيّ (ت: ٤٦٠ هـ): الاستبصار/ تعليق حسن الموسوي الخرسان/ دار الكتب الإسلاميّة، طهران- إيران/ باب جواز أن تحج المرأة عن الرجل:الحديث ٣- ج ٢ ص ٣٢٣.

(٢) الشهيـد الأوّل (ت: ٧٨٦ هـ): ذكرى الشيعة في أحـكام الشريعة/ مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحيـاء التراث، قم- إيران، ط.١٤١٩ هـ / ج ١ ص ٤٠.

ولكن لو كانت أحكام الشريعة - في كلّ الشؤون والوقائع - واضحةً وضوحاً كاملاً بديهيّاً للجميع، لكان تحديد الموقف العمليّ تجاه الشريعة أمراً ميسوراً لكلّ أحد، لأنّ كلّ إنسان يعرف أنّ الموقف العمليّ الذي تفرضه عليه تبعيّته للشريعة في الواجبات هو «**أن يفعل**»، وفي المحرّمات هو «**أن يترك**»، وفي المباحات هو «**أنّه بالخيار إن شاء فعل، وإن شاء ترك**»، ولمَا احتاج في تحديد الموقف العمليّ تجاه الشريعة إلى أيّ بحثٍ علميٍّ ودراسةٍ واسعة.

ولكن بُعدنا الزمنيّ عن عصر التشريع، وأموراً أخرى، كانت سبباً لعدم وضوح عددٍ كبيرٍ من أحكام الشريعة واكتنافها بالغموض، ممّا أدّى إلى الغموض في تحديد الموقف العمليّ للإنسان المؤمن بالشريعة في كثيرٍ من الوقائع والأحداث، لأنّ الإنسان إذا لم يعلم نوع الحكم الذي تقرّره الشريعة في واقعةٍ ما، هل هو الوجوب أو الحرمة أو الإباحة، فسوف لن يعرف طبيعة الموقف العمليّ الذي يتحتّم عليه أن يتّخذه تجاه الشريعة في تلك الواقعة بحكم تبعيّته لها.

وعلى هذا الأساس كان من الضروريّ أن يوضع علمٌ يتولّى رفع الغموض عن الموقف العمليّ تجاه الشريعة في كلّ واقعةٍ، بإقامة الدليل على تعيين الموقف العمليّ، الذي تفرضه على الإنسان تبعيّتُه للشريعة، فكان علم الفقه هو العلم المتكفّل بالقيام بهذه المهمّة.

خلاصة الدرس

يعتبر علم الفقه من أهمّ العلوم الإسلاميّة، وأقدمها تاريخاً، وأوسعها مادّةً، ونشأ فــي صدر الإسلام واستمرّ إلى يومنـا الحاضر، وبرز فيه فقهاءٌ كثيرون، منهم عباقـرةٌ مبدعـون، فهو العلم الذي يبحث عن جميع مسائـل الحياة الاجتماعيّة، ويحدّد الموقف الشرعيّ تجاهها.

وفــي اللغـة الفقه العلـم بالشـيء والفهم له، وأمّـا في الاصطـلاح: فهو علم الأحكام الشرعيّة من أدلّتها التفصيلية.

ومن الضروريّ على الإنسان المؤمن أن يعيّن - في كلّ شأنٍ من شؤون الحياة- الموقـفَ العمليَّ الذي تفرضه عليه هـذه التبعيّة للشريعة الإسلاميّة، ويحدّد هل يفعل أو يترك؟.

وبُعدنا الزمنيّ عن عصر التشريع، وأمور أخرى، كانت سبباً لعدم وضوح عددٍ كبيـرٍ من أحكام الشريعة واكتنافها بالغموض، ممّا أدّى إلى الغموض في تحديد الموقف العمليّ للإنسان المؤمن بالشريعة في كثيرٍ من الوقائع والأحداث. وعلى هـذا الأساس كان من الضـروريّ أن يوضع علـمٌ يتولّى رفع هـذا الغموض عن الموقـف العملـيّ تجاه الشريعة فـي كلّ واقعةٍ، بإقامة الدليل علـى تعيينه، الذي تفرضـه على الإنسان تبعيّتُه للشريعة، فكان علم الفقه هو العلم المتكفّل بالقيام بهذه المهمّة.



أسئلة الدرس

١ ـ ما هو تعريف علم الفقه؟

٢ ـ ما معنى الفقه لغة واصطلاحاً؟

٣ ـ ما هي الحاجة إلى علم الفقه؟



الدرس الثاني

تعريف علم الفقه



أهداف الدرس

١. أن يستذكر الطالب تعريف علم الفقه.

٢. أن يستذكر موضوع علم الفقه.

٣. أن يدرك غاية علم الفقه.



ما هو علم الفقه؟

علم الفقه هو العلم الذي نعرف من خلاله الحكم الشرعي في كلّ واقعةٍ ويحدد الموقف العمليّ للمكلّف، ليزيل الغموض من حوله، ويصبح واضحاً للمكلّف كيف يتصرّف فيه، ليكون بالتالي مطيعاً وتابعاً مخلصاً للشريعة.

ولهذا يمكن القول: إنّ علم الفقه «**هو علم استنباط الأحكام الشرعيّة، أو هو علم عمليّة الاستنباط**»[١].

أو هو: «**العلم بالأحكام الشرعيّة العمليّة عن أدلّتها التفصيليّة لتحصيل السعادة الأخرويّة**»[٢].

شرائط الفقيه وعمليّة الاستنباط:

الفقيه: هو مَن يمارس إقامة الدليل على تعيين الموقف العمليّ في كلّ واقعٍ من وقائع الحياة وناحيةٍ من مناحيها. وهذا ما يُطلق عليه في المصطلح العلميّ اسم (عمليّة استنباط الحكم الشرعي). فاستنباط الحكم الشرعيّ في واقعةٍ؛ معناه إقامة الدليل على تحديد الموقف العمليّ للإنسان تجاه الشريعة في تلك الواقعة. والفقيه هو من يقوم بعمليّة الاستنباط هذه. ولا

(١) الصدر (ت: ١٤٠٠ هـ): محمد باقر: المعالم الجديدة/ مطبعة النعمان، النجف الأشرف ـ العراق، ط. الثانية ١٩٧٥ م./ ص ٧.

(٢) الشهيد الأوّل (ت: ٧٨٦ هـ): ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة/ مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران، ط.١٤١٩ هـ / ج ١ ص ٤٠.

يستطيع أيّ شخصٍ أن يقوم بهذه العمليّة إلا إذا توفّرت فيه قوّة استنباط الأحكام من الأدلّة. ولكي تكون عنده هذه القوّة ينبغي أن يحصل على عدّةٍ من العلوم، منها:

.**العلم بفنون اللغة العربيّة**، والأُنس بالمحاورات العرفيّة.

.**علم المنطق بمقدار تشخيص الأقيسة**، وترتيب الحدود، وتنظيم الأشكال، وتمييز العقيم منها من السليم.

.**العلم بمهمّات مسائل أصول الفقه.**

.**العلم برجال الحديث**، لمعرفة الرجال الثقات وغيرهم الذين يقعون في سند الرواية، وتمييز المشتركين من الرجال، لمعرفة هل يمكن الاعتماد على ما نقلوه أم لا؟

.**القدرة على الفحص الكامل** عن فتاوى المجتهدين من الخاصّة، ورؤساء مذاهب وفتاوى العامّة بل والفحص عن أخبارهم، والأحاديث المرويّة من طرقهم.

- **معرفة الكتاب والسنّة**؛ لغةً وعرفاً ودرايةً، ومعارضاتهما والقرائن الصارفة، وتفريع الفروع على الأصول. وهذا من أهمّ الأمور التي ينبغي أن تتوفّر في الفقيه.

قال الشهيد الأول في بيان شرائط الإفتاء عند الفقيه: «**البلوغ والعقل والذكورة والإيمان والعدالة وطهارة المولد إجماعاً، والكتابة والحريّة والبصر على الأشهر، والنطق وغلبة الذكر، والاجتهاد في الأحكام الشرعية وأصولها، ويتحقّق بمعرفة المقدّمات الستّ وهي: الكلام، والأصول، والنحو، والتصريف، ولغة العرب، وشرائط الأدلّة، والأصول الأربعة وهي: الكتاب، والسنّة، والإجماع، ودليل العقل ....، نعم يشترط مع ذلك كلّه أن يكون له قوّةٌ**

يتمكّن بها من ردّ الفروع إلى أصولها واستنباطها منها. وهذه هي العمدة في هذا الباب، وإلا فتحصيل تلك المقدّمات قد صارت في زماننا سهلةً ...»[1].

موضوع علم الفقه:

بعد أن اتضح تعريف علم الفقه، يظهر منه موضوع هذا العلم، لأنّ الموضوع هو المحور الذي تدور حوله مسائل العلم، وهو في هذا المقام فعل المكلّف، فإنّ مسائل الفقه كلّها تهدف إلى تحديد الموقف العمليّ للمكلّف في أيّ واقعة أو مسألةٍ يواجهها كما تقدّم، وعلى هذا كان موضوع علم الفقه هو: «**فعل المكلّف من حيث هو مكلّف**»[2].

غاية الفقه:

وأمّا غاية الفقه والفائدة المرجوّة منه فهي: معرفة أحكام الله تعالى لأجل الالتزام بها وامتثالها، ممّا يستدعي تحصيل السعادتين، وإن كانت الأخرويّة أهمّ، لذلك نجد أعاظم علمائنا صرفوا أعمارهم في سبيل هذا العلم، وبذلوا جهودهم في تحصيل أحكام الله، لنيل مرضاته، قال في المدارك : « **فإنّ أحقّ الفضائل بالتعظيم، وأحراها باستحقاق التقديم، وأتمّها في استجلاب ثوابه الجسيم؛ هو العلم بالأحكام الشرعيّة والوظائف الدينيّة، إذ به تحصل السعادة الأبديّة، ويتخلّص من الشقاوة السرمديّة، فوجب على كلّ مكلّفٍ صرف الهمّة إليه وإنفاق هذه المهلة اليسيرة عليه**»[3]، فإنّه المطلب الذي يظفر بالنجاح طالبه، والمغنم الذي يبشر بالأرباح كاسبه، والعلم الذي يعرج

(١) الشهيد الثاني زين الدين بن علي(ت:٩٦٥ هـ): شرح اللمعة/ منشورات مكتبة الداوري، قم-إيران، ط. ١٤١٠ هـ/ ج ٣ ص ٦٦.

(٢) الشهيد الأوّل (ت: ٧٨٦ هـ): ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة/ مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم-إيران، ط.١٤١٩ هـ/ ج ١ ص ٤٠.

(٣) العاملي، محمّد بن علي (ت: ١٠٠٩ هـ): مدارك الأحكام/ مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم-إيران، ط. الأولى ١٤١٠ هـ/ ج١ المقدّمة ص ٤.

بحامله إلى الذروة العليا، بل ليس في العلوم بعد معرفة الله أشرف من علم الفقه، إذ به تعرف أوامر الله تعالى فتمتثل، ونواهيه فتجتنب. روى في الكافي عن حمّاد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقّهه في الدين**»[1].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**الكمال كلّ الكمال التفقّه في الدين، والصبر على النائبة وتقدير المعيشة**»[2].



خلاصة

إنّ علم الفقه هو العلم الذي نعرف من خلاله الحكم الشرعي في كلّ واقعة ويحدّد الموقف العمليّ للمكلّف.

الفقيه: هو مَن يمارس إقامة الدليل على تعيين الموقف العمليّ في كلّ واقعة من وقائع الحياة وناحيةٍ من مناحيها، وهذا ما يُطلق عليه في المصطلح العلميّ اسم (عمليّة استنباط الحكم الشرعي).

وأمّا موضوع علم الفقه فهو: «فعل المكلّف من حيث هو مكلّف».

وأمّا غاية علم الفقه فهي: معرفة أحكام الله تعالى لأجل الالتزام بها وامتثالها، ممّا يستدعي تحصيل السعادتين.



أسئلة الدرس

١ ـ ما هو موضوع علم الفقه؟

٢ ـ ما هي الغاية من علم الفقه؟

٣ ـ من هو الفقيه؟وما هي شروط الفقاهة؟

---

(١) الكليني: (ت: ٣٢٩ هـ): الكافي/ تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ط. الثالثة ١٣٦٣ هـ ش./ باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، ح ٣ ج ١ ص ٣٢.

(٢) م.ن. ح ٤.



الدرس الثالث

تعريف الحكم الشرعيّ وتقسيماته



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى الحكم التكليفي.

٢. أن يتعرّف إلى الحكم الوضعي.

٣. أن يعدّد مصادر التشريع.

٤. أن يقسّم الحكم الشرعيّ.





تعريف الحكم الشرعي

عرفنا أنّ علم الفقه يهدف إلى تحديد الموقف العمليّ للمكلّف، وتعيين الحكم الشرعيّ له في كلّ واقعةٍ، لذلك نجد من الضروريّ أن نكوّن فكرةً عامةً عن الحكم الشرعي.

فقد عرّف الحكم الشرعيّ بعدّة تعاريف نختار منها ما ذكره الشهيد الصدر رحمه الله حيث عرّفه بأنّه: «**التشريع الصادر من الله تعالى لتنظيم حياة الإنسان، سواء كان متعلقاً بأفعاله أو بذاته أو بأشياء أخرى داخلة في حياته**»[(1)].

وحيث إنّ الهدف من الحكم هو تنظيم حياة الإنسان، نلاحظ أنّه يقسّم إلى قسمين:

١. **الحكم التكليفيّ**: وهو الحكم الذي يتعلّق بأفعال المكلّفين، ويكون له توجيهٌ عمليٌّ مباشرٌ، فيوجّه سلوكه مباشرةً، في مختلف جوانب حياته، الشخصيّة والعباديّة والعائليّة والاقتصاديّة والسياسيّة، التي عالجتها الشريعة ونظمّتها جميعاً، كحرمة شرب الخمر، ووجوب الصلاة، ووجوب الإنفاق على الزوجة، وإباحة إحياء الأرض الموات، ووجوب العدل على الحاكم.

٢. **الحكم الوضعي**: وهو الحكم الذي يتعلّق بذوات المكلّفين، أو بأشياء أخرى ترتبط بهم، فلا يكون موجّهاً مباشراً للإنسان في أفعاله وسلوكه، نعم يشرّع وضعاً معيّناً يكون له تأثيرٌ غير مباشرٍ على سلوك الإنسان؛ من قبيل الأحكام

(١) الصدر (ت: ١٤٠٠ هـ): محمد باقر: المعالم الجديدة/ مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط. الثانية ١٩٧٥ م./ ص ١٠٠.

والخطابات التي تنظم العلاقة الزوجيّة بين الرجل والمرأة، وتعتبر المرأة زوجةً للرجل في ظلّ شروطٍ معيّنة، فإنّ العلاقة الزوجيّة الصحيحة تشرّع بصورةٍ مباشرةٍ علاقةً معيّنةً بين الرجل والمرأة، وتؤثّر بشكلٍ غير مباشرٍ على السلوك وتوجّهه، لأنّ المرأة بعد أن تصبح زوجةً، مثلاً، عليها أن تلتزم بسلوكٍ معيّنٍ تجاه زوجها كوجوب التمكين، كذلك يجب على الزوج أن يلتزم بتكاليف معيّنة تجاه زوجته كوجوب الإنفاق.وبالتالي نكون قد استفدنا من هذا الحكم أحكاماً تكليفيّةً متعدّدةً. وهذه الأحكام كلّها تنظّم حياة المكلّف.

أو من قبيل الأحكام التي تنظم علاقة الملكيّة، وتعتبر الشخص مالكاً للمال في ظلّ شروطٍ معيّنة. فبعد أن تتحقّق الشروط تصبح هذه الأرض مثلاً ملكاً صحيحاً لزيد، بالتالي تكون (الملكيّة) حكماً وضعيّاً، لا يتعلّق بفعل المكلّف. ولا بذاته، وإنّما بالأرض التي ترتبط بالمكلّفين، ولا يكون له توجيهٌ للمكلّف مباشرةً، نعم نستفيد من هذا الحكم الوضعيّ أحكاماً تكليفيّة متعدّدة، من قبيل: يحرم على أيّ شخصٍ الدخول إلى أرض زيد إلا بإذنه، وهكذا.

فإنّ هذا النوع من الأحكام كـ(الزوجيّة) و(الملكيّة) ليست متعلّقةً بأفعال المكلّفين، بل بذواتهم أو بأمورٍ ترتبط بهم، تستفاد منها أحكام تكليفيّة أخرى توجّه مباشرةً أفعال المكلّفين، لذلك نجد العلاقة والارتباط بين الأحكام الوضعيّة والأحكام التكليفيّة وثيقة جداً، لذلك لا يوجد حكمٌ وضعيٌّ إلا ويوجد إلى جانبه حكمٌ تكليفيٌّ. والمجموع من هذه الأحكام يصبّ في خانة تنظيم حياة الإنسان.

أقسام الحكم التكليفيّ:

ينقسم الحكم التكليفيّ وهو الحكم المتعلّق بأفعال الإنسان والموجّه لها مباشرةً إلى خمسة أقسام:

١. **الوجوب**: وهو الحكم الشرعيّ الذي يبعث نحو الشيء الذي تعلّق به بدرجة الإلزام، بشكلٍ لا يسمح الشارع بالمخالفة؛ نحو وجوب الصلاة، ووجوب الحجّ، ووجوب الصوم.

٢. **الاستحباب**: وهو الحكم الشرعيّ الذي يبعث نحو الشيء الذي تعلّق به بدرجة دون الإلزام، لذلك توجد إلى جانبه دائماً رخصةٌ وإجازةٌ من الشارع في مخالفته، نحو استحباب صلاة الليل، واستحباب الصدقة، واستحباب الدعاء في ليالي القدر.

٣. **الحرمة**: وهو الحكم الشرعيّ الناهي والزاجر عن الشيء الذي تعلّق به بدرجة الإلزام، بشكلٍ لا يسمح الشارع بالمخالفة؛ نحو حرمة الربا، وحرمة الزنى، وحرمة بيع الأسلحة من أعداء الإسلام.

٤. **الكراهة**: وهو الحكم الشرعيّ الناهي والزاجر عن الشيء الذي تعلّق به بدرجةٍ دون الإلزام، لذلك توجد إلى جانبه دائماً رخصةٌ وإجازةٌ من الشارع في مخالفته، فالكراهة في مجال الزجر كالاستحباب في مجال البعث، كما أنّ الحرمة في مجال الزجر كالوجوب في مجال البعث، ومثاله كراهة النوم بين الطلوعين، وكراهة خلف الوعد.

٥. **الإباحة**: وهو الحكم الذي يفسح فيه الشارع المجال للمكلّف ليختار الموقف الذي يريده، حيث يخلو الشيء الذي تعلّق به حكم الإباحة من أيّ نحوٍ من أنحاء الإلزام، ونتيجة ذلك أن يتمتّع المكلّف بالحريّة فله أن يفعل وله أن يترك.

مصادر التشريع:[١]

١. **القرآن الكريم**: المصدر الأوّل للأحكام الإسلاميّة. ولا تختصّ آياته بالأحكام العمليّة، بل تعرّض القرآن لمئات المواضيع المختلفة، وأمّا التي

(١) تعرّضنا لهذا البحث بشكلٍ مفصّلٍ في مدخل إلى علم الأصول تحت عنوان وسائل الإثبات أو مصادر التشريع، فراجع.

تختصّ بالأحكام فتقارب خمس مائة آية، جمعت في كتب آيات الأحكام[١]. ويعدّ القرآن الكريم المرجع الأوّل لدى المسلمين وعلمائهم للأحكام الشرعيّة، إلّا فرقةً واحدة عرفت باسم الأخباريّين لم تجوّز الرجوع إلى ظواهر القرآن لأنّه لا يعرفه إلّا من خوطب به، وهو المعصوم عليه السلام[٢].

٢. **السنّة الشريفة**: وهي قول وفعل وتقرير المعصوم عليه السلام، ولم يقع أي خلافٍ في حجيّة السنّة والاعتماد عليها، ولكن الخلاف وقع بين الفقهاء في جهتين:

الأولى: هل الحجّة خصوص سنّة النبيّ ـ كما عليه أتباع مدرسة الخلفاء ـ أم أنّ الحجّة تشمل سنّة الأئمّة عليهم السلام أيضاً ـ كما عليه أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام؟

الثانية: تارةً تكون السنّة قطعيّة ومتواترةً، وأخرى تكون ظنيّةً وهي ما يصطلح عليه بخبر الواحد، والأوّل هي القدر المتيقنّ من حجيّتها. ولكن وقع الكلام في حجيّة خبر الواحد، وتشعّبت الآراء بين الإفراط، كأبي حنيفة الذي لا يحفل بالأحاديث المنقولة حتّى قيل: لم يثبت عند أبي حنيفة ـ من بين جميع الأحاديث المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سوى سبعة عشر حديثاً[٣]، وبين التفريط كبعض العلماء الذين يعتمدون حتّى على الأحاديث الضعيفة أيضاً، أو كالأخباريّين الذين يعملون بكلّ الأحاديث الموجودة في الكتب الأربعة، وبين الاعتدال وهو رأي المشهور من علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام الذين يعتمدون على الأحاديث الصحيحة والحسنة والموثّقة ويتركون الضعيفة.

٣. **الإجماع**: وهو يعني اتفاق آراء علماء المسلمين على مسألة. وهو يعتبر حجّة؛ لأنّ اتفاقهم هذا دليلٌ على أنّهم قد تلقّوها من قِبَل الشارع، إذ ليس من المحتمل أن يتّفقوا جميعاً من تلقاء أنفسهم، وعليه يكون الإجماع حجّة إذا كان كاشفاً عن رأي المعصوم عليه السلام.

---

(١) أشهر هذه الكتب كتاب «**آيات الأحكام**» للمقدّس الأردبيليّ، وكنز العرفان للفاضل المقداد السيوريّ.

(٢) وقد تعرّضنا للحركة الأخبارية نشأةً وآراءً في مدخل علم الأصول، فراجع.

(٣) راجع: مطهري ـ مرتضى/ مدخل إلى الفلسفة/ دار نور المصطفى ط. ٢٠٠٧ / ص ١٤ من كتاب الأصول والفقه

ومـن هذا التعريف يفهم أنّه لا عبرة بإجمـاع المتأخّرين إذا لم يُستكشف منه رأي المعصوم عليه السلام ، كما أنّه لا عبرة بالإجماع بما هو إجماع، وإنّما بما هو كاشف عـن رأي المعصوم عليه السلام ، بينما يرى أتباع مدرسة الخلفاء أنّ إجماع الأمّة بنفسه حجّة، تماماً كالقرآن والسنّة، لأنّه من المستحيل أن يقع الجميع في الخطأ.

٤. **العقـل**: يعنـي أنّه إذا حكـم العقل حكماً قطعيّاً في مـورد من الموارد كان حكمه حجّةً.

وقـد اختلف المسلمون في مدى حجيّة العقل، فأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام يرون الحجيّة للعقل في الموارد القطعيّة فقط، وأمّا القياس فهو اتباعٌ للظنّ و﴿إِنَّ الظَّـنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[١]، مضافاً إلى أنّ العمومات الواصلة من قِبَل الشارع وافيةٌ بالغرض.

وأمّـا الأخباريّون منهـم فلا يجيزون الرجوع إلى العقل إطلاقـاً، لأنّ دين اللّه لا يصـاب بالعقول. ومن هنا شنّوا حملـةً كبيرةً على الاجتهاد، لما فيه من إعمالٍ للعقل، ونتج عن ذلك محاربتهم لعلم الأصول[٢].

وأمّـا أتبـاع مدرسة الخلفاء فالمذهب الحنفيّ يـرى القياس ـ الذي هو عبارة عن التمثيل المنطقي ـ دليلاً رابعاً.

بينمـا «**المالكيّـون والحنابلة لا يعيـرون أيّ أهميّةٍ للقياس، وعلى الأخصّ الحنابلـة. أمّ الشوافـع فإنّهـم ـ تبعـاً لزعيمهـم محمّـد بـن إدريـس الشافعـيّ ـ يتأرجحـون في الوسط إذ يهتمّون بالحديث أكثر من الأحناف، بينما يهتمّون بالقياس أكثر من المالكيين والحنابلة**»[٣].

(١) سورة يونس: من الآية٣٦.
(٢) وقد تعرّضنا لمعنى الاجتهاد وتطوّره والصراع بين الأصوليين والأخباريين في: مدخل إلى علم الأصول.
(٣) مطهري ـ مرتضى/ مدخل إلى الفلسفة/ دار نور المصطفى ط. ٢٠٠٧ / ص ١٦ من كتاب الأصول والفقه.

خلاصة الدرس

عُـرِّف الحكـم الشرعـيّ بأنّـه «**التشريـع الصـادر مـن الله تعالـى لتنظيـم حيـاة الإنسـان، سـواء كان متعلقاً بأفعالـه أو بذاته أو بأشيـاء أخرى داخلة في حياته**».

وحيـث إنّ الهدف مـن الحكم هو تنظيم حياة الإنسان، نلاحظ أنّه يقسّم إلى قسمين:

١. **الحكم التكليفيّ**: وهو الحكم الذي يتعلّق بأفعال المكلّفين.

٢. **الحكم الوضعيّ**: وهو الحكم الذي يتعلّق بذوات المكلّفين، أو بأشياء أخرى ترتبط بهم.

ينقسم الحكم التكليفيّ إلى خمسة أقسام: (الوجوب، الحرمة، الاستحباب، الكراهة، الإباحة).

مصادر التشريع: القرآن الكريم، السنّة الشريفة، الإجماع، العقل.

وقـد وقع الخلاف في كلّ من الإجمـاع والعقل، وهل هما من المصادر؟ وعلى فرض كونهما منها إلى أيّ مدى يمكن الاعتماد عليهما؟

أسئلة الـدرس

١ ـ ما هو تعريف الحكم الشرعيّ؟

٢ ـ ما الفرق بين الحكم الوضعيّ والحكم التكليفيّ؟

٣ ـ ما هي مصادر التشريع وتحدّث عن واحدٍ منها؟



الدرس الرابع

أبواب الفقه ومسائله



أهداف الدرس

١. أنْ يتعرّف الطالب إلى أبواب الفقه.

٢. أنْ يعدّد أهمّ مسائل علم الفقه.





تقسيم علم الفقه:

بـذل الشيخ الطوسيّ جهداً جباراً في تبويب الفقــه وأكثر من تفريعات الفقه علــى الأصول، واستحــدث فروعاً جديــدة، إلا أنّه بقي هناك نوعٌ مــن التشويش فــي التبويب. لكن فــي مدرسة الحلّة ولأوّل مــرّة نلتقي بكتــاب الشرايع للمحقّق الحلّيّ رحمه الله الــذي قام بتنظيمٍ فريدٍ لأبواب الفقه، استمرّ عليه فقهاء الشيعة إلى العصــر الحاضــر: فقسّم المحقّق كتابــه الشرايع إلى أقسام أربعــة: العبادات، العقود، الإيقاعات، الأحكام. وهذا تقسيمٌ رائع يجمع مختلف أبواب الفقه.

يبتنى هذا التقسيم على القسمة الثنائيّة الدائرة بين السلب والإيجاب:

فالحكم الشرعيّ إمّا أن يتقوّم بقصد القربة أم لا، **والأوّل** العبادات.

والثانـي إمّــا أن يحتــاج إلــى اللفظ مــن الجانبيــن الموجب والقابــل أو من جانبٍ واحــدٍ، أو لا يحتاج إلى اللفظ؛ **فالأوّل** العقــود، كالبيع والإجارة، **والثاني** الإيقاعــات، كالطلاق والعتق، **والثالث** الأحــكام كالديّات والميراث والقصاص، وبذلك تندرج جميع أبواب الفقه في أقسام أربعة.

القسم الأوّل العبادات:

وهي الأحكام التي يقصد بها التقرّب إلى الله تعالى، وهي على نحوين:

١ ـ ما يكون بالأقوال: كالقراءة والتسبيح والتكبير في الصلاة.

٢ ـ ما يكون بالأفعال: كالطهارة للصلاة، أو الطواف، وكالصوم.

٣ ـ ما يكون بالأموال: كالصدقات، والزكاة.

٤ ـ ما يكون بالأموال والأفعال: كالحجّ.

٥ ـ ما يكون بالأقوال والأفعال: كالصلاة.

وقد أدرج العلامة في الشرائع تحت هذا القسم عشرة كتبٍ[١]:

١ ـ كتاب الطهارة.

٢ ـ كتاب الصلاة.

٣ ـ كتاب الزكاة.

٤ ـ كتاب الخمس.

٥ ـ كتاب الصوم.

٦ ـ كتاب الاعتكاف.

٧ ـ كتاب الحج.

٨ ـ كتاب العمرة.

٩ ـ كتاب الجهاد.

١٠ ـ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإنّما فصل الاعتكاف عن الصوم، لأنّه غير الصوم، وإن كان الصوم من شرائطه، وكذلك فصل العمرةَ عن الحجّ لأنّها غيره، وإن اشتركا عملاً للحاجّ، ولكن قد يفترقان في العمرة المفردة. ولم يفصل بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لوحدة الحكم فيهما من جميع الجهات.

(١) الحلّي ـ جعفر بن سعيد (ت: ٦٧٦ هـ): شرائع الإسلام/ تحقيق وتعليق: صادق الشيرازي/ منشورات: استقلال، طهران ـ إيران، ط. الثانية ١٤٠٩ هـ ج ١ ص ٨.

القسم الثاني العقود:

ذكر العلامة في هذا القسم ستّة عشر كتاباً:

١ ـ كتاب التجارة، ويدخل فيه البيع.

٢ ـ كتاب الرهن.

٣ ـ كتاب المفلس.

٤ ـ كتاب الحجر.

٥ – كتاب الضمان.

٦ ـ كتاب الصلح.

٧ ـ كتاب الشركة.

٨ ـ كتاب المضاربة.

٩ ـ كتاب المزارعة والمساقاة.

١٠ ـ كتاب الوديعة.

١١ ـ كتاب العارية.

١٢ ـ كتاب الإجارة.

١٣ ـ كتاب الوكالة.

١٤ ـ كتاب الوقف.

١٥ ـ كتاب الهبة.

١٦ ـ كتاب النكاح.

القسم الثالث: في الإيقاعات:

وهي أحد عشر كتاباً:

١ ـ كتاب الطلاق.

٢ ـ كتاب الخلع والمباراة.

٣ ـ كتاب الظِهار.

٤ ـ كتاب الإيلاء.

٥ ـ كتاب اللعان.

٦ ـ كتاب العتق.

٧ ـ كتاب التدبير.

٨ ـ كتاب الإقرار.

٩ ـ كتاب الجعالة.

١٠ ـ كتاب الأيمان.

١١ ـ كتاب النذر.

القسم الرابع: في الأحكام:

وفيه اثنا عشر كتاباً:

١ـ كتاب الصيد والذباحة.

٢ـ كتاب الأطعمة والأشربة.

٣ـ كتاب الغصب.

٤ـ كتاب الشفعة.

٥ـ كتاب إحياء الموات.

٦ـ كتاب اللقطة.

٧ـ كتاب الفرائض.

٨ـ كتاب القضاء.

٩ـ كتاب الشهادات.

١٠ـ كتاب الحدود والتعزيرات.

١١ـ كتاب القصاص.

١٢ ـ كتاب الديّات.

وبهـذا التقسيم يكون قـد أدرج العلامة الحلّي كلّ مواضيـع الفقه، وسار من جـاء بعده على هذا التقسيم، وإن حاول المتأخّـرون من العلماء التغيير في هذا التقسيم، إلا أنّه لا يعدّ ذلك التغيير الكبير، ولا يتعدّى إلحاق بابٍ أو كتابٍ بكتابٍ آخرٍ، وإن كان محلّ كلامٍ ونقاش.

خلاصة الدرس

بـذل الشيخ الطوسيّ جهداً جباراً فـي تبويب الفقه وأكثر تفريعات الفقه على الأصول، واستحدث فروعاً جديدة، إلا أنّه بقي هناك نوعٌ من التشويش في التبويب. لكن في مدرسة الحلّة ولأوّل مرّة نلتقي بكتاب الشرايع للمحقّق الحلّيّ رحمه الله الذي قام بتنظيمٍ فريدٍ لأبواب الفقه، استمرّ عليه فقهاء الشيعة إلى العصر الحاضر: فقسّـم المحقّق كتابه الشرايع إلى أقسام أربعـة: العبادات، العقود، الإيقاعات، الأحكام. وهذا تقسيمٌ رائع يجمع مختلف أبواب الفقه.

أسئلة الدرس

١ ـ اذكر التقسيم الذي جاء به المحقّق الحلّي لأبواب الفقه.

٢ ـ ما الفرق بين العقود والإيقاعات؟

٣ـ بماذا يتقوّم الحكم الشرعيّ.





الدرس الخامس

تطوّر الفقه في مدرسة أهل البيت عليهم السلام



أهداف الدرس

1. أن يتعـرّف الطالب إلـى الأدوار الثلاثة للفقه في مدرسة أهل البيت وخصائصها.





بداية التشريع:

لقد كان المسلمون في راحةٍ في حياة الرسول ﷺ من جهة التعرّف إلى أحكامهم الشرعيّة، وذلك لسببين رئيسين هما:

١ ـ وجود الرسول ﷺ بينهم، وهو مصدر التشريع الأساس بعد اللّه سبحانه، فهم كلّما تعرّضوا لمشكلةٍ سارعوا إليه في حلّها.

٢ ـ محدوديّة دائرة الدولة الإسلاميّة، وعدم مواجهة المسلمين للمشاكل والمسائل الكثيرة، كما حدث ذلك بعد وفاته ﷺ. حيث احتاجوا إلى الفحص عن أحكامهم في كلّ مستجدّاتهم.

القرآن والعترة:

كان الرسول ﷺ يعلم بما سيواجه الأمّة من بعده من مشاكل ومسائل، فجعل مصدرين مهمّين يلجأ إليهما المسلمون في حلّ مشاكلهم، هما القرآن الكريم والعترة الطاهرة. وقد صرّح بذلك مراراً في طول حياته الشريفة، فقال:« **إنّي تاركٌ فيكم الثقلين، كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما أن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً**»[1]، فجعلهما في عرضٍ واحد، وحثّ المسلمين على اتباعهم والتمسّك بهم. وبذلك يكون قد أشار ﷺ إلى أنّ القرآن ـ وإن كان هو المصدر الأصيل

(١) راجع: مسند أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)/ دار صادر، بيروت ـ لبنان/ ج٣ ص ١٤ و ١٧. وج ٤ ص ٣٧١. وج ٥ ص ١٨٢ و ١٨٩. عبد اللّه بن بهرام الدارميّ (ت: ٢٥٥ هـ): سنن الدارميّ/ مطبعة الاعتدال، دمشق ـ سوريا/ ط. ١٣٤٩ هـ/ ج ٢ ص ٤٣٢. ومسلم النيسابوري: (ت: ٢٦١): صحيح مسلم/ دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ج ٧ ص ١٢٣.

للتشريع. لكنّه يحتاج إلى مفسّرٍ، فجعل عترته الطاهرة - وهم الذين تربّوا في حجره وفي بيته الذي نزل فيه القرآن - هي المرجع في تفسيره.

وبعد أن واجه المسلمون مسألة الخلافة بعد الرسول، حصل الانشقاق بينهم إلى فريقين: الأوّل اتبع قول الرسول ﷺ فتمسّك بالكتاب والعترة معاً، والآخر رفض التمسّك بالعترة وقال: «**حسبنا كتاب الله**»[1]. وكان لهذا الانشقاق أثره الكبير في كيفيّة التفكير، وحلّ المشكلات.

أدوار الفقه في مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

ويمكن حصر الأدوار التي مرّ بها الفقه في مدرسة أهل البيت عليهم السلام حتّى عصر الغيبة الكبرى في ثلاثة أدوار تقريباً هي:

١ - من بعد وفاة الرسول ﷺ إلى شهادة الإمام زين العابدين عليه السلام.

٢ - من بداية عصر الإمامين الصادقين عليهما السلام حتّى نهاية الغيبة الصغرى.

٣ - من بداية الغيبة الكبرى حتّى يومنا هذا.

الدور الأوّل:

ويبتدئ هذا الدور من زمن وفاة الرسول ﷺ حتّى انتهاء القرن الأوّل. وتشمل هذه الفترة حياة أئمّة أربعةٍ من أئمتنا، وهم عليّ بن أبي طالب، والحسن بن عليّ، والحسين بن عليّ، وعليّ بن الحسين عليهم السلام.

وكان مصدر التشريع في هذا العهد عند الشيعة أتباع أهل البيت عليهم السلام الكتاب والسنّة، ونقصد بالسنّة: قول النبيّ ﷺ أو الإمام عليه السلام و فعلهما و تقريرهما. وأمّا القياس والرأي فقد رفضهما أتباع هذه المدرسة رفضاً باتّاً كما تقدّم[2].

(١) مسند أحمد بن حنبل (ت:٢٤١ هـ)/ دار صادر، بيروت - لبنان/ ج ١ ص ٣٢٥.

(٢) راجع مدخل إلى علم الأصول من اصدارات المركز تحت عنوان «**الخلاف في السنّة**» ص ٣٣، و «**الإجتهاد ومدرسة الرأي**» ص ٤٧.

وقـد روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «**لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخفّ أولى بالمسح من أعلاه**»[1].

وأمّـا الإجمـاع. مهمـا كان تفسيـره. فهـو ليس مصـدراً للتشريـع لدى هذه المدرسـة؛ لأنّه لا يفيد إلا الظـنّ و﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[2]. نعم أصبح مصدراً عندما اعتبر كاشفاً عن رأي المعصوم عليه السلام، بمعنى أنّه لو اتفق العلماء علـى رأيٍ وانكشف منه أنّ ذلـك الرأي مطابق لـرأي الإمام عليه السلام فيجب الأخذ به.

وملخّص الكلام في هذه المرحلة: أنّ فهم الحكم الشرعيّ آنذاك عند مدرسة أهل البيـت عليهم السلام كان عبارةً عن الأخذ بظواهر الكتـاب والسنّة. وكان أتباع هذه المدرسـة يرجعون فيما يحدث لهـم من مشاكل إلى الأئمّـة عليهم السلام. وكان للأئمّة عليهم السلام دورٌ هـامٌّ في بيان الأحـكام في هذه المرحلة، لا سيّمـا الإمام عليّ بن أبي طالـب عليه السلام، حيث كان يرجع إليه الصحابـة في كلّ مشكلةٍ تواجههم لم يجدوا لها حلّاً.

الدور الثاني:

ويبتـدئ هذا الدور من أوائل القرن الثانـي حتّى أواخر القرن الثالث؛ أي من بدايـة إمامة الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام حتّى نهاية الغيبة الصغرى. ومن أبرز ميّزات هذا الدور هو فسح المجال - في بدايته - للأئمّة عليهم السلام كي يمارسوا أعمالهم العلميّة، وذلك لأنّ المرحلة التي عايشها الإمامان الصادقان عليهما السلام كانت مرحـلة انتقال الحكم من الأمويّين إلـى العباسيّين، حيث كان الخلفاء مشغولين عـن أهل البيت عليهم السلام بحروبهم الداخليّة، فاغتنم الإمامان الصادقان عليهما السلام هذه

(١) ابـن الأشعث السجستاني(ت:٢٧٥هـ): سنن أبي داوود/ تحقيق سعيد محمّد اللحام/دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط.الأولى ١٩٩٠م/ج١ ص٤٤.

(٢) سورة يونس: من الآية٣٦.

الفرصة لنشر العلم عبر حلقاتٍ للدرس، تضمّ الكثيرين من روّاد المعرفة.

ولكن سرعان ما واجهت هذه المدرسة الضغط السياسيّ الشديد بعد استلام العباسيّين الحكم، حيث زجّوا بأئمّة الشيعة في السجون والمعتقلات، وفقدوا بذلك الفرصة المناسبة لنشر علومهم.

ويمكن القول إنّ استنباط الأحكام الشرعيّة من الكتاب والسنّة - بالمعنى الاصطلاحيّ - كان أمراً رائجاً بين أصحاب الأئمّة عليهم السلام، خاصةً الذين تربّوا في مدرسة الإمامين الصادقين عليهما السلام أمثال زرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وأبان بن تغلب، وغيرهم، حتّى أنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا يأمرون بعض أصحابهم باستنباط الأحكام وإفتاء الناس، كما أمر الإمام الباقر عليه السلام أبان بن تغلب أن يجلس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويفتي الناس حيث قال له: «**اجلس في مسجد المدينة، وافتِ الناس، فإنّي أحبّ أن يُرى في شيعتي مثلك**»[1]، أو كما قال الإمام الصادق عليه السلام لسائلٍ سأله عن المسح على مرارةٍ وضعها على ظفره المقطوع: «**يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى:** ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2] **امسح عليه**»[3]. وهكذا نرى كيف يعلّم الإمام عليه السلام هذا السائل كيفيّة استنباط الحكم الشرعيّ من الكتاب.

ميّزات هذه المرحلة:

لقد ضمّت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام أكثر من أربعة آلاف من حملة العلم. وقد ألّف أربعمائة منهم أصولاً يُعتمد عليها في الفقه الجعفري عُرفت

(١) المازندراني: مولى محمد صالح (ت:١٠٨١)/ شرح أصول الكافي / دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط. الأولى١٤٢١هـ، بيروت - لبنان/ ج ١١ ص ٨٤.

(٢) الحج: من الآية٧٨.

(٣) الحرّ العامليّ (ت: ١١٠٤ هـ): وسائل الشيعة/ مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم - إيران، ط. الثانية ١٤١٤ هـ/ باب: إجزاء المسح على الجبائر في الوضوء، الحديث ٥ ص ٤٦٤.

بـ(الأصـول الأربعمائة)، جُمعت في أربع موسوعاتٍ روائيّة اشتهرت باِسم الكتب الأربعة وهي:

١ - **الكافي**: للشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب الكلينيّ المتوفّى سنة ٣٢٩ هـ.

٢ - **من لا يحضره الفقيه**: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن عليّ القمّي المتوفّى سنة ٣٨١ هـ.

٣ و ٤ - **التهذيب والاستبصار**: كتابان لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى سنة ٤٦٠ هـ.

ووضعت في هذا الدور نواة القواعد العامّة للفقه الجعفريّ، ونقلت إلينا بشكل روايات، ثمّ وضعت على طاولة البحث العلميّ، فكانت نتيجة ذلك بروز القواعد الأصوليّة والفقهيّة التي يعتمد عليها في الاجتهاد والاستنباط حتّى اليوم من قبيل: «**الاستصحاب، والبراءة الشرعيّة، وقاعدة اليد، وترجيح الروايات المتعارضة، والعمل بالخبر الواحد، وأمثال ذلك**». وهذه كلّها لها أهميتها الخاصّة التي تميّز المذهب عن غيره، وتجعله غنيّاً يماشي احتياجات كلّ عصرٍ من دون تحريف. ولو قارنّا مذهب أهل البيت عليهم السلام مع غيره من المذاهب الأخرى، لرأينا فرقاً كبيراً من جهة توفّر القواعد الفقهيّة والأصولية فيه، وعدم توفّرها في غيره.

الدور الثالث:

ويبتدئ هذا الدور من بداية الغيبة الكبرى، حتّى عصرنا الحاضر.

ميّزات هذا الدور:

ومن مميّزاته نيابة العلماء والفقهاء عن الإمام عليه السلام في زعامة المذهب وذلك بأمر من الإمام المنتظر عجّل الله فرجه الشريف عند بداية الغيبة الكبرى، فقد ورد في التوقيع المشهور: «...**وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنّهم**

حجّتي عليكم وأنا حجّة الله»[1]. فكان العلماء هم المرجع الوحيد لحلّ المشاكل التي كانت تواجه الشيعة منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا.

وقد مارس الفقهاء عملية الاستنباط من الكتاب الكريم والسنّة الشريفة مستعينين بالقواعد التي مهّدها الأئمّة عليهم السلام في الدور الثاني، فكانت هذه القواعد مبثوثةً في الكتب الفقهيّة أو الروائيّة وتذكر حسب الحاجة إليها. ولكن سرعان ما التفت الفقهاء إلى ضرورة استخراجها بشكلٍ منفصلٍ عن البحث الفقهيّ، فألّف السيد المرتضى قدس سره المتوفّى سنة ٤٣٦ هـ كتابه (الذريعة إلى أصول الشريعة)، بحث فيه عن أمّهات القواعد الأصولية.

وقد كانت الكتب الفقهيّة على شكل كتبٍ روائيّة، ثمّ أخذت تتّسع حتّى ظهرت بشكل كتبٍ فقهيّةٍ مبوّبةٍ، واستدلاليّةٍ مبتناةٍ على القواعد العامّة. وممّن كان لهم الأثر الكبير في هذه الظاهرة:

١. **الشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان المتوفّى سنة ٤١٣ هـ.**

٢. **السيد المرتضى علم الهدى المتوفّى سنة ٤٣٦ هـ تلميذ الشيخ المفيد.**

٣. **شيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى سنة ٤٦٠ هـ**، الذي كان أكثرهم جهداً في هذه العمليّة، حيث ألّف عدّة كتبٍ فقهيّةٍ وروائيّةٍ وأصوليّةٍ منها: «**الخلاف**» و«**النهاية**» و«**المبسوط**» في الفقه، و«**التهذيب**» و«**الاستبصار**» في الحديث، وكتاب «**العدّة**» في أصول الفقه.

ويشير هو إلى هذا التحوّل العظيم في الفقه في مقدّمة كتابه المبسوط فيقول: **«أمّا بعد فإنّي لا أزال أسمع معاشر مخالفينا من المتفقّهة والمنتسبين إلى علم الفروع، يستحقرون فقه أصحابنا الإماميّة ويستنزرونه، وينسبونهم**

(١) الحرّ العامليّ (ت: ١١٠٤ هـ): وسائل الشيعة/ مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم - إيران، ط. الثانية ١٤١٤ هـ/ باب: وجوب الرجوع في القضاء والفتوى إلى رواة الحديث، الحديث ٨ ص ١٤٠.

إلـى قلّـة الفروع وقلّة المسائـل، ويقولون: إنّهم أهل حشـوٍ ومناقضة، وإنّ من ينفي«القيـاس» و«الاجتهـاد» لا طريـق له إلى كثرة المسائـل، ولا التفريع على «الأصـول»، لأنّ جـلّ ذلك وجمهـوره مأخوذٌ من هذين الطريقيـن، وهذا جهل منهم بمذاهبنا وقلّة تأمّل «لأصولنا»، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا لعلموا أنّ جلّ ما ذكروه من المسائل موجودٌ في أخبارنا .... وأمّا ما كثّروا به كتبهم من مسائل الفروع فلا فرع من ذلك إلا وله مدخلٌ في أصولنا ومخرجٌ على مذاهبنا، لا علـى وجـه القياس، بل على طريقـة توجب علماً يجب العمـل عليها، ويسوغ الوصول إليها، من البناء على الأصل، وبراءة الذمّة، وغير ذلك .... وكنت على قديـم الوقـت وحديثه، متشـوّق النفس إلى عمل كتابٍ يشتمـل على ذلك، تتوق إليـه نفسـي، فتقطعنـي عن ذلك القواطـع، وتشغلني الشواغـل، وتضعف نيّتي أيضـاً فيـه قلّة رغبة هذه الطائفة فيه، وترك عنايتهـم به، لأنّهم ألِفوا الأخبار وما رووه من صريح الألفاظ، حتّى أنّ مسألةً لو غيّر لفظها، وعبر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم، لعجبوا منها، وقصر فهمهم عنها ...»[1].

ومـن خلال هذا النصّ نرى كيف تحوّل الفقـه ـ في هذا الدور ـ من الاقتصار على الروايات، إلى تفريع الفروع على الأصول بصورة موسّعة.

ومـن خـلال هذه الأدوار نلاحظ كيـف ترعرع علم الأصول فـي أحضان علم الفقـه، فكلّمـا اتسعـت الدائرة في علـم الفقه، والحاجـة إلى تحديـد الأحكام الشرعيّة، والموقف من المسائل المستحدثة، كلّما زادت الحاجة إلى علم الأصول أكثر، واستخراج القواعد التي يعتمد عليها في عمليّة الاستنباط.

(١) الطوسـيّ (ت: ٤٦٠ هـ): المبسـوط/ تصحيـح وتعليق محمّد تقي الكشفـيّ/ منشورات المكتبة المرتضويّـة لإحياء آثار الجعفريّة، طهران ـ إيران، ط. ١٣٨٧، ج ١ مقدّمة المؤلّف ص ١.

خلاصة الدرس

لقد كان المسلمون في راحةٍ في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من جهة التعرّف إلى أحكامهم الشرعيّة، وذلك لسببين رئيسين هما:

١ ـ وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بينهم.

٢ ـ محدوديّة دائرة الدولة الإسلاميّة، وعدم مواجهة المسلمين للمشاكل والمسائل الكثيرة.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعلم بما سيواجه الأمّة من بعده من مشاكل ومسائل، فجعل مصدرين مهمّين يلجأ إليهما المسلمون في حلّ مشاكلهم، هما القرآن الكريم والعترة الطاهرة.

وبعد أن واجه المسلمون مسألة الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حصل الانشقاق بينهم إلى فريقين: الأوّل اتبع قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فتمسّك بالكتاب والعترة معاً، والآخر رفض التمسّك بالعترة وقال: « **حسبنا كتاب الله** ».

ويمكن حصر الأدوار التي مرّ بها الفقه في مدرسة أهل البيت عليهم السلام حتّى عصر الغيبة الكبرى في ثلاثة أدوار تقريباً هي:

١ ـ من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى شهادة الإمام زين العابدين عليه السلام.

٢ ـ من بداية إمامة الإمام الباقر عليه السلام حتّى نهاية الغيبة الصغرى.

٣ ـ من بداية الغيبة الكبرى حتّى يومنا هذا.

وكان لكلّ دور خصائصه وميّزاته وأعلامه ومؤلّفاتهم.



أسئلة الدرس

١ـ ما هي الفترة الزمنيّة التي امتد فيها الدور الفقهي الأوّل؟

٢ـ ما هي الفترة الزمنيّة التي امتد فيها الدور الفقهي الثاني؟ وما هي ميّزاته؟

٣ـ ما هي الفترة الزمنيّة التي امتد فيها الدور الفقهي الثالث؟ وما هي ميّزاته؟



الدرس السادس

المدارس الفقهيّة الشيعيّة (١)
المدينة المنوّرة - الكوفة



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى مدرسة المدينة المنوّرة.

٢. أن يتعرّف إلى مدرسة الكوفة.



تمهيد:

عندمـا نتحدّث عن مدرسة فقهيّة في بلدٍ خاصٍ كالمدينة، أو الكوفة أو بغداد أو النجـف، فنحن لا نعني أنّ الفقه وكلّ المدارسـ الفقهيّة قد تمركزت في هذا البلد، وأنّ روّاد هذه المدرسة لم يتجاوزوا هذه النواحي قطّ، ولم يكن لهم أيّ دورٍ في تكوين مدرستهم في بلدانٍ أخرى. وإنّما نعني أن هذه المدرسة بلغت نضجها وكمالهـا الخاصّ في هذا البلـد بالخصوص، وكان لها الأثـر الكبير في تكوينها وبلورتهـا، وإن كان للبلدانِ الأخرى دورٌ وتأثيرٌ في تكوينها وبلورتها، وتركت آثاراً في تكامل هذه المدرسة.

فقد مرّ علـى الفقه في مدرسة أهل البيت عليهم السلام مراحل مختلفة، من الصعب تحديدهـا تحديـداً دقيقاً، ولكـن يمكن حصرهـا على وجه التقريـب في بعض المدارس الكبرى بحسب العصور.

١ ـ مدرسة المدينة المنوّرة:

وعصرهـا هو عصر الصحابة والتابعين لهم. فقد ظهر الفقه من حين ظهور المجتمـع الإسلاميّ في المدينة المنوّرة، واستمرّت الحركة العلميّة والفقهيّة إلى حيـاة الإمام الصـادق عليه السلام، فكانت المدينة المنوّرة هي المنطلق الأوّل للرسالة الإسلاميّـة، والمدرسـة الأولـى للفقـه الإسلاميّ، وكانـت الوطـن الأوّل لفقهاء الشيعة؛ مـن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فكان مـن فقهاء الصحابة ـ بعد

الإمام أمير المؤمنين والزهراء والحسنين عليهم السلام وهم الذين تولّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تربيتهم وتعليمهم:

ابنُ عباس، وسلمان الفارسيّ، وأبو ذرّ الغفاريّ، وأبو رافع إبراهيم مولى رسول الله، قال النجاشيّ: «**أسلم أبو رافع قديماً بمكّة، وهاجر إلى المدينة، وشهد مع النبيّ مشاهده، ولزم أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، وكان من خيار الشيعة، وشهد معه حروبه، وكان صاحب بيت ماله بالكوفة**»[1] «**ولأبي رافع كتاب السنن والأحكام والقضاء**»[2].

وكان من التابعين جمع كثير من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حفظوا السنّة النبويّة، وتداولوها فيما بينهم، ونقلوها إلى الأجيال التي تليهم بأمانةٍ، حتّى قال الذهبيّ: «**فهذا (أي التشيّع) كثيرٌ في التابعين وتابعيهم مع الدين، والورع والصدق، فلو ردّ حديث هؤلاء (أي الشيعة) لذهبت جملة الآثار النبويّة**»[3].

في عهد الخليفة الثاني:

منع عُمر بن الخطاب من تدوين السنّة النبويّة لعوامل عدّة، فبقيت في صدور الصحابة والتابعين يتناقلونها حتّى خلافة عُمر بن عبد العزيز، حيث أمر محمّدَ بن مسلم بن شهاب الزهريّ بتدوينه، فلم يتّفق لمحدّثي غير الشيعة من الصحابة والتابعين تدوين السنّة النبويّة قبل هذا الوقت، ولكن فقهاء الشيعة دوّنوا عدّة مدوّنات حديثيّة مهمّة، فكان أمير المؤمنين عليه السلام أوّل من صنّف في الفقه، ودوّن الحديث النبويّ، ولم يوافق عمر بن الخطاب على رأيه. قال السيوطيّ في تدريب الراوي: «**كان بين السلف من الصحابة والتابعين**

(١) النجاشي (ت: ٤٥٠ هـ): رجال النجاشي/ مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، بقم المشرّفة - إيران، ط. الخامسة ١٤١٦ هـ/ ذكر الطبقة الأولى، ص ٤.

(٢) م. ن. ص ٦.

(٣) الذهبيّ/ (ت: ٧٤٨ هـ)/ ميزان الاعتدال/ تحقيق علي محمّد البجاوي/ منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٣٨٢ هـ ج١ ص ٦.

اختلافٌ كثيرٌ في كتابة العلم، فكرهها كثيرٌ منهم، وأباحتها طائفة وفعلوها: منهم: عليّ وابنه الحسن»[1].

وفي كتاب الكافي عن يحيى بن جرير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **«كان سعيد بن المسيّب والقاسم بن محمّد بن أبي بكر، وأبو خالد الكابليّ، من ثقات عليّ بن الحسين عليه السلام»**[2].

والخلاصة أنّه كان فقهاء الشيعة وعلى رأسهم أئمّة المسلمين من أهل البيت عليهم السلام، يقودون الحركة الفكريّة في العالم الإسلاميّ، وانطلقت هذه الحركة من المدينة المنوّرة بشكلٍ خاصّ، وبلغ هذا الازدهار الفكريّ غايته في عهد الإمام الصادق عليه السلام فازدهرت المدينة في عصره، وزخرت بطلاب العلوم ووفود الأقطار الإسلاميّة، وانتظمت فيها حلقات الدرس، وكان بيته جامعةً إسلاميّةً يزدحم فيه رجال العلم، وحملة الحديث، من مختلف الطبقات ينتهلون من موارد علمه.

قال الشيخ المفيد عن الإمام الصادق عليه السلام: **«ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر ذكره في البلدان. ولم يُنقل عن أحد من أهل بيته العلماء ما نقل عنه، ولا لقيَ أحدٌ منهم من أهل الآثار ونقَلَة الأخبار، ولا نقلوا عنهم كما نقلوا عن أبي عبد الله عليه السلام، فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات، على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجلٍ»**[3].

(١) نقلاً عن الأمين(ت: ١٣٧١) ـ محسن/ أعيان الشيعة/ تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ط. ١٩٨٣م./ ج ١ ص ٨٨.

(٢) الكليني: (ت: ٣٢٩ هـ): الكافي/ تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ إيران، ط. الثالثة ١٣٦٣ هـ ش. باب: مولد أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام، ج ١ ح ١ ص ٤٧٢.

(٣) المفيد (ت: ٤١٣ هـ): الإرشاد/ تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، منشورات دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان/ ط. الثانية ١٤١٤ هـ. ج ٢ ص ١٧٩.

ملامح المدرسة:

كانت ملامح المدرسة الفقهيّة في المدينة المنوّرة بدائية إلى حدٍّ ما، ولم تتبلور المسائل الخلافيّة في الفقه بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومدرسة الخلفاء، كما تبلورت بعد في مدرسة الكوفة على يد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام واستمرّت إلى أيّام الإمام الرضا عليه السلام. فالاختلاف في القياس والاستحسان والرأي والاجتهاد، ومسائل الصلاة والوضوء والحجّ الخلافيّة، لم تظهر واضحةً في هذه الفترة بالذات.

«ولم تكن هناك كتبٌ فقهيّة تعنى بالفتاوى خارج نطاق المدوّنات الحديثيّة. كما لم تتبلور بعد لدى فقهاء الشيعة صياغةُ المقاييس الخاصّة للاجتهاد والفتيا بصورةٍ كاملة، والمقاييس الخاصّة لمعالجة الأخبار المتعارضة، فلم يكثر الحديث بعد عن أهل آل البيت عليهم السلام، ولم يدرس في حديثهم بعد الشيء الكثير من الحديث المدسوس، ولم يشقّ على الفقهاء الرجوع إلى الأئمّة عليهم السلام للسؤال فيما يعرضهم من حاجة، أو ما يعرض الناس، فلم تظهر حاجةٌ ملحّةٌ إلى اتخاذ مقاييس للرأي والاجتهاد، ومقاييس لمعالجة الأحاديث المتعارضة، ومعرفة السقيم منها من الصحيح، ولم يراجعوا الأئمّة في شيءٍ من ذلك، ولذلك كان البحث الفقهيّ في هذا الدور يقطع مراحل حياته الأولى»[1].

ويمكن تحديد ملامح هذا العصر في الخطوط الثلاثة التالية:

١ ـ قلّة المدوّنات الحديثيّة واضطرابها في الجمع والتبويب.

٢ ـ عدم تبلور المسائل الخلافيّة بين المذاهب الفقهيّة الإسلاميّة بصورةٍ واضحةٍ.

---

(١) الطباطبائيّ ـ علي (ت: ١٢٣١ هـ): رياض المسائل/ منشورات مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة، ط. الأولى ١٤١٢ هـ ج ١ المقدّمة ص ١٤ ـ ١٥.

٣ـ عـدم اتخاذ مقاييس للاجتهـاد والفتيا فيما لا نصّ فــي مورده، ومعالجة الأحاديث الفقهيّة المتعارضة.

٢ ـ مدرسة الكوفة:

فــي أخريات حياة الإمام الصادق عليه السلام، انتقلــت مدرسة الفقه الشيعيّ من المدينــة إلــى الكوفة. وبذلك بــدأت حياةٌ فقهيّةٌ جديدةٌ فــي الكوفة، حيث كانت آنــذاك مركزاً صناعيّاً، وفكريّاً كبيراً، تقصده البعثات العلميّة والتجاريّة، فذكر البــلاذريّ أنّ أربعة آلاف مــن رعايا الفرس وفدوا إلى الكوفــة[1]، وقد أثّر وفود العناصر المختلفة إلى الكوفة طلباً للعلم، أو التجارة في التلاقح العقليّ والذهنيّ فــي هــذه المدرسة. وقد هاجــر إليها فوق ذلــك وفود من الصحابــة والتابعين، والفقهــاء وأعيــان المسلمين، من مختلف الأمصار، وبذلــك كانت الكوفة، حين انتقل إليها الإمــام الصادق عليه السلام وانتقلت إليها مدرسة الفقه الشيعيّ، من أكبر العواصم الإسلاميّة.

«**وقـد عـدّ البراقي فـي تاريخ الكوفـة ١٤٨ صحابيّاً من الذيـن هاجروا إلى الكوفـة واستقـرّوا فيهـا، مـا عـدا التابعيـن والفقهاء الذيـن انتقلـوا إلى هذه المدينـة، والذيـن كان يبلغ عددهم الآلاف، ومـا عدا الأسر العلمية التي كانت تسكن هذا القطر. وقد أورد ابن سعد في الطبقات ترجمة لـ (٨٥٠) تابعيّا ممن سكن الكوفة**»[2]. في مثل هذا الوقت انتقل الإمام الصادق عليه السلام إلى الكوفة أيّام أبي العباس السفاح، واستمرّ بقاؤه عليه السلام فيها مدّة سنتين.

(١) راجع تاريخ الكوفة ص ٢٨٢ ـ ٣٩٥ نقلاً عن الطباطبائيّ ـ علي (ت: ١٢٣١ هـ): رياض المسائل/ منشورات مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة، ط. الأولى ١٤١٢ هـ ج ١ المقدّمة ص ٣١.

(٢) نقــلاً عــن: الشهيد الثاني زين الدين بن علي (ت:٩٦٥ هـ): شرح اللمعة/ منشورات مكتبة الداوري، قم ـ إيران، ط. ١٤١٠ هـ ج ١ المقدّمة ص ٣٢.

وقد اشتغل الإمام الصادق عليه السلام هذه الفترة بالخصوص في نشر المذهب الشيعيّ، لعدم وجود معارضة سياسيّة قويّة، حيث سقطت في هذه الفترة الحكومة الأمويّة، وظهرت الحكومة العباسيّة، واغتنم الإمام الصادق عليه السلام فرصة الصراع على الحكم للدعوة إلى المذهب، ونشر أصول مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فازدلفت إليه الشيعة من كلّ فجٍّ زرافاتٍ ووحداناً تستقي منه العلم، وترتوي من منهله العذب، وتروي عنه الأحاديث في مختلف العلوم. قال الحسن بن علي بن زياد الوشاء لابن عيسى القمّيّ: «**إنّي أدركت في هذا المسجد (يعني مسجد الكوفة) تسعمائة شيخٍ كلٌّ يقول: حدّثني جعفر بن محمّد عليه السلام**»[1].

فازدهرت مدرسة الكوفة على يد الإمام الصادق عليه السلام وتلاميذه، فكانت الكوفة هي منطلق الحركة العقليّة في العصر الثاني من عصور تأريخ الفقه الشيعيّ، ومبعث هذه الحركة، ومركز الإشعاع، وظلّت تعدّ من أهمّ مراكز الفقه الشيعيّ، تقصدها البعثات الفقهيّة الشيعيّة. ويتعاقب فيها فقهاء الشيعة، مركز الصدارة في التدريس، والفتيا، والبحث الفقهيّ.

أبرز أصحاب الإمام الصادق عليه السلام:

وكان من بين أصحاب الإمام الصادق عليه السلام من فقهاء الكوفة:

١ ـ أبان بن تغلب بن رباح الكوفيّ الذي روى عنه عليه السلام (٣٠٠٠٠) حديثاً.

٢ ـ محمّد بن مسلم الكوفيّ. روى عن الباقرين عليهما السلام (٤٠٠٠٠) حديثاً. وقد صنّف الحافظ أبو العبّاس بن عقدة الهمدانيّ الكوفيّ المتوفّى سنة ٣٣٣ هـ كتاباً في أسماء الرجال الذين رووا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام فذكر ترجمة (٤٠٠٠) رجلٍ.

(١) الميرزا النوريّ (ت: ١٣٢٠ هـ): خاتمة مستدرك الوسائل/ منشورات وتحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران ط. الأولى ١٤١٥ هـ ج ٢ ص ٢٧.

كلّ ذلـك بالإضافـة إلى البيوتات العلميّة الكوفيّة التـي عرفت بانتسابها إلى الإمام الصادق عليه السلام، واشتهرت بالفقه والحديث كبيت آل أعين، وبيت آل حيّان التغلبيّ، وبيت بني عطيّة، وبيت بني دراج، وغيرهم من البيوتات العلمية الكوفية الشيعيّة، التي اشتهرت بالفقه والحديث.

خوف العباسيّين:

أدّى التجمّـع والالتقاء بالإمام الصادق عليه السلام في الكوفة، والاحتفاء به إلى أن يأخذ الجهـاز العباسيّ الحاكم حذره منه، فخاف المنصور الدوانيقيّ أن يفتتن النـاسـ بالإمام عليه السلام لما رأى مـن إقبال الفقهاء والناس عامّـة عليه، ممّا حداه على أن يطلبه إلى قربه في بغداد.

ورغـم العقبات الكبرى التي اصطدم بها أئمّـة الشيعة من أهل البيت عليهم السلام، وفقهاء الشيعة ورواة الحديـث، من ضغط الجهاز الحاكم والمعارضات، والتهم والافتـراءات، والتهريج الـذي كان يقوم به الجهـاز، تقدّمت الدراسـة الفقهيّة الشيعيّـة، وتدوين الحديث شوطاً كبيراً في هـذه الفترة، وتركت لنا هذا التراث التشريعي الضخم الذي تمتلئ به المكتبات، وتحتفل به المجموعات الضخمة.

ملامح المدرسة:

١ - ظهـرت ظاهـرة التدوين من أيّام الإمـام الباقر عليه السلام ونمـت أيّام الإمام الصـادق عليه السلام، حيث أخـذ الإمام الصـادق عليه السلام - لمـا رأى من ضياع الأحاديث والسنن - يحثّ الرواة والعلماء على تدوين السنّة وكتابتها.

عـن أبـي بصير قال: «**دخلت علـى أبي عبد الله عليه السلام فقال: مـا يمنعكم من الكتـاب؟! إنّكـم لـن تحفظوا حتّـى تكتبوا، إنّه خـرج من عندي رهـطٌ من أهل**

البصرة يسألون عن أشياء فكتبوها»[١].

٢ ـ توسّعت حاجات المسلمين في هذا الوقت، وازدحم الناس على أبواب الفقهاء يطلبون منهم الرأي فيما استجدّ عليهم، ولم يكن ما بيد فقهاء السنّة ومحدّثيها من الحديث ما يكفي لسدّ هذه الحاجة، كما ولم يجدوا في الكتاب الكريم جواباً عنها، ولم يكن الجهاز القائم بالحكم يسمح لهم بمراجعة أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين اعتبرهم صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم عدلاً للكتاب في حديث الثقلين المعروف، فاضطروا إلى اتخاذ القياس والاستحسان، والأخذ بالظنّ والرأي.

٣ ـ حدوث الاختلاف في نقل الروايات؛ فقد شاع نقل الحديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في هذه الفترة، وكثر الدسّ وظهر الاختلاف في متون الروايات، فكان يبلغ البعض من الشيعة حديثان مختلفان في مسألة واحدة، فكان الرواة يطلبون من أئمّة أهل البيت عليهم السلام أن يدلّوهم على مقياسٍ لاختيار الحديث الصحيح. فوردت عنهم عليهم السلام الأحاديث المعالجة للأخبار المتعارضة والتي عُرفت بالأخبار العلاجيّة في الأصول؛ قال زرارة: «**سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت: جعلت فداك يأتي عنكم الخبران والحديثان المتعارضان فبأيهما آخذ؟ فقال عليه السلام: يا زرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك، ودع الشاذّ النادر. فقلت: يا سيّدي إنّهما معاً مشهوران مأثوران عنكم. فقال: خذ بما يقول أعدلهما عندك وأوثقهما في نفسك. فقلت: إنّهما معاً عدلان مرضيّان موثّقان. فقال: أنظر ما وافق منهما العامّة فاتركه، وخذ بما خالف، فإنّ الحقّ فيما خالفهم. قلت: ربما كانوا موافقين لهم، أو مخالفين فكيف أصنع؟ قال: إذاً**

(١) الميرزا النوريّ (ت: ١٣٢٠ هـ): مستدرك الوسائل/ منشورات وتحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران ط. الثانية ١٤٩٨ هـ، باب: وجوب العمل بأحاديث النبيّ والأئمّة عليهم السلام الحديث ٢٨ ج ١٧ ص ٢٩٣.

فخذ بما فيه الحائطة لدينك، واترك الآخر. قلت: إنّهما معاً موافقان للاحتياط، أو مخالفان له فكيف أصنع؟ فقال: إذاً فتخيّر أحدهما فتأخذ به، ودع الآخر»[1].

وظهور الأخبار العلاجيّة الكثيرة في هذا الفترة دليلٌ على توسّع مدرسة أهل البيت عليهم السلام في الفقه، وكثرة النقل، وشياع الحديث عنهم، وانتشار فقه أهل البيت عليهم السلام في الأقطار؛ كالعراق وخراسان والريّ والحجاز واليمن. وهذه هي الظروف الطبيعية لظهور الدسّ والاختلاق والتزييف في الحديث.

٤ ـ اتسعت شقّة الخلاف بين المذاهب الفقهيّة الإسلاميّة في كثيرٍ من المسائل الخلافيّة، بهدف تعكير الجوّ الفكريّ بين المسلمين، فيتاح للجهاز الحاكم أن يصيد في الماء العكر. وكان موقف أئمّة أهل البيت عليهم السلام حازماً وحكيماً، إذ غضّوا الطرف كثيراً عن الخلاف في المسألة الفقهيّة، مجاراةً لفقه العامّة الرائج، وإذا خلوا بأصحابهم ذكروا لهم الوجه الحقّ، وأمروهم بالكتمان والسرّ ما وسعهم ذلك، وحتّى يقضي اللّه بما هو قاضٍ، وينقذ الأمّة من هؤلاء الغاصبين، وهذه هي التقيّة في الفقه الإسلاميّ.

٥ ـ تعيين موازين خاصّة للاجتهاد والاستنباط من قبل أئمّة أهل البيت عليهم السلام؛ فقد كان الرواة ينتقلون إلى مناطق بعيدةٍ، وتمسّ بهم الحاجة إلى معرفة حكمٍ من الأحكام الشرعيّة، ولا يجدون وسيلةً لسؤال الإمام عليه السلام، كما لا يجدون نصّاً في المورد، فوضع لهم أئمّة أهل البيت عليهم السلام قواعد خاصّة للاستنباط والاجتهاد: كالاستصحاب والبراءة، والاحتياط، والتخيير، وغيرها من القواعد الأصوليّة والفقهيّة، كقاعدة الطهارة، واليد، والإباحة،

---

(١) الميرزا النوريّ (ت: ١٣٢٠ هـ): مستدرك الوسائل/ منشورات وتحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران ط. الثانية ١٤٩٨ هـ، باب: وجوب الجمع بين الأحاديث المختلفة، ج ١٧ الحديث ٢ ص ٣٠٣.

والحليّة، وغيرها ممّا يعين الفقيه على الاجتهاد والاستنباط.

وإذا صحّ أنّ المدرسة انتقلت من الكوفة إلى المدينة، أو إلى بغداد أو إلى طوس في هذا الفترة فقد كان لفترةٍ قصيرةٍ، وبصورةٍ غير كاملةٍ، وبقيت الكوفة محتفظةً بمكانتها حيناً طويلاً من هذا العصر.

خلاصة الدرس

لقد مرّ على الفقه في مدرسة أهل البيت عليهم السلام مراحل مختلفة، من الصعب تحديدها تحديداً دقيقاً، ولكن يمكن حصرها على وجه التقريب في بعض المدارس الكبرى بحسب العصور.

١. مدرسة المدينة المنوّرة:

وعصرها هو عصر الصحابة والتابعين لهم. فقد ظهر الفقه من حين ظهور المجتمع الإسلاميّ في المدينة المنوّرة، واستمرّت الحركة العلميّة والفقهيّة إلى حياة الإمام الصادق عليه السلام، فكانت المدينة المنوّرة هي المنطلق الأوّل للرسالة الإسلاميّة، والمدرسة الأولى للفقه الإسلاميّ، وكانت الوطن الأوّل لفقهاء الشيعة؛ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

لكن ملامح المدرسة الفقهيّة في المدينة المنوّرة كانت بدائيّة إلى حدٍّ ما، ولم تتبلور فيها المسائل الخلافيّة في الفقه بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومدرسة الخلفاء.

٢. مدرسة الكوفة:

في أخريات حياة الإمام الصادق عليه السلام، انتقلت مدرسة الفقه الشيعيّ من المدينة إلى الكوفة، وبذلك بدأت حياةٌ فقهيّةٌ جديدةٌ في الكوفة اشتغل فيها الإمام في نشر المذهب الشيعيّ. وقد أدّى التجمّع والالتقاء بالإمام في الكوفة

إلى أن يأخذ الجهاز العباسيّ الحاكم حذره منه، فخاف المنصور الدوانيقيّ أن يفتتن الناس بالإمام عليه السلام فطلبه إلى قربه في بغداد.

ملامح المدرسة:

١ ـ ظهرت ظاهرة التدوين من أيّام الإمام الباقر عليه السلام ونمت أيّام الإمام الصادق عليه السلام.

٢ ـ توسّعت حاجات المسلمين في هذا الوقت، وازدحم الناس على أبواب الفقهاء يطلبون منهم الرأي فيما استجدّ عليهم.

٣ ـ حدوث الاختلاف في نقل الروايات؛ فقد شاع نقل الحديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في هذه الفترة، وكثر الدسّ وظهر الاختلاف في متون الروايات.

٤ ـ اتسعت شقّة الخلاف بين المذاهب الفقهيّة الإسلاميّة في كثيرٍ من المسائل الخلافيّة، بهدف تعكير الجوّ الفكريّ بين المسلمين، فيتاح للجهاز الحاكم أن يصيد في الماء العكر.

٥ ـ تعيين موازين خاصّة للاجتهاد والاستنباط من قبل أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

أسئلة الدرس

١ ـ كيف يمكن تقسيم الفقه إلى مدارس بحسب العصور؟

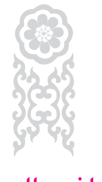
٢ ـ ما هي ملامح مدرسة الكوفة؟

٣ ـ ما هي الأسباب التي ساعدت الإمام الصادق عليه السلام في نشر أصول المذهب؟



الدرس السابع

المدارس الفقهيّة الشيعيّة (٢)
قمّ والريّ



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى مدرسة قمّ والريّ.

٢. أن يتبيّن ملامح هذه المدرسة.





نشأة مدرسة قمّ

يبتـدئ هذا العصر مـن الغيبة الكبـرى، والربع الأوّل من القـرن الرابع إلى النصف الأوّل من القرن الخامس.

في هـذه الفتـرة انتقلت حركـة التدريس والكتابـة والبحث إلـى مدينتيّ قمّ والريّ[1]، وظهر فيهما شيوخٌ كبارٌ من أساتذة الفقه الشيعيّ،كان لهم الأثر الأكبر فـي تطويره. فقد كانت (قمّ) منـذ أيّام الأئمّة عليهم السلام من أمّهات المدن الشيعيّة، وحصناً من حصون التشيّع، وعشّاً لآل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وموضع عناية خاصّة من أهل البيت عليهم السلام.

وكانت (الريّ) ـ وهي قريبةٌ من (قمّ) ـ في هذا التاريخ بلدةً عامرةً بالمدارس والمكاتب، وحافلةً بالعلماء والفقهاء والمحدّثين.

أسباب الانتقال:

مـن أبرز أسباب انتقـال مدرسة أهل البيت عليهم السلام من الكوفـة إلى إيران؛ هو الضغـط الشديد الذي كان يلاقيه فقهاء الشيعة وعلماؤهم من العباسيّين، فقد كانـوا يطاردون كلَّ من يظهـر باسم الشيعة بمختلف ألـوان الأذى والتهمة، ممّا جعل فقهاء الشيعة وعلماؤها ينتقلون إلى قم والريّ، ووجدوا في هاتين البلدتين

(١) الـريّ: منطقـةٌ فـي جنوب طهران، دفـن فيها الكثير مـن علماء التشيّـع، أبرزهم الشـاه عبد العظيم الحسنـيّ والشيخ الصدوق.

ملجأً آمناً يطمئنّون فيه لنشر فقه وحديث أهل البيت عليهم السلام ، وكانتا تحت حكومة سلاطين آل بويه، الذين عُرفوا في التاريخ بنزعتهم وولائهم للتشيّع.

ازدهار المدرسة:

ويظهر أنّ (قم) في عصر الغيبة، وعهد نيابة النواب الأربعة، كانت حافلةً بعلماء الشيعة وفقهائها، ومركزاً فقهيّاً كبيراً من مراكز البحث الفقهيّ؛ يعتمد على فقهائها حتّى أمثال الحسين بن روح. ويدلّل على ذلك روايةٌ تاريخيّة ذكرها الشيخ في كتاب الغيبة وهي: «**أنفذ الشيخ حسين بن روح (رضي الله تعالى عنه) كتابَ التأديب إلى (قم)، وكتب إلى جماعة الفقهاء بها وقال لهم: انظروا ما في هذا الكتاب، وانظروا هل فيه شيءٌ يخالفكم، فكتبوا إليه: إنّه كلّه صحيحٌ، وما فيه شيءٌ يخالف إلا قوله: (في) الصاع في الفطرة نصف صاعٍ من طعام، والطعام عندنا مثل الشعير من كلّ واحدٍ صاع**»[١].

ويكفي للدلالة على ضخامة مدرسة قم في هذا العصر ما ذكره العلامة المجلسيّ الأوّل محمّد تقيّ رحمه الله في شرحه لمن لا يحضره الفقيه بالفارسيّة ما تعريبه: «**إنّ في زمان عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه المتوفّى سنة ٣٢٩ هـ كان في قم من المحدّثين مائتا ألف رجل**»[٢].

ووصف الحسن بن محمّد بن الحسن القميّ المتوفّى سنة ٣٧٨ هـ الفترةَ التي نتحدث عنها قائلاً: «**الباب السادس عشر: في ذكر بعض علماء قم، وعدد خواصّهم مائتان وستّة وستّون، وذكر مصنفاتهم ورواياتهم وبعض أخبارهم**»[٣].

(١) الطوسيّ (ت: ٤٦٠ هـ): الغيبة/ تحقيق: عباد الله الطهرانيّ،وعلي أحمد ناصح/ منشورات مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم - إيران، ط. الأولى ١٤١١ هـ ، ص ٣٩٠.

(٢) الصدوق(ت: ٣٨١ هـ): الغيبة/ تحقيق وتقديم: محمّد صادق بحر العلوم/ منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها، النجف الأشرف - العراق/ ط. ١٣٨٥ هـ مقدّمة محقّق الكتاب ص ٣.

(٣) الميرزا النوريّ (ت: ١٣٢٠ هـ): خاتمة مستدرك الوسائل/ منشورات وتحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم - إيران ط. الأولى ١٤١٥ هـ ج ٤ ص ٤٨٦.

وهذه الكلمات تدلّ على أنّ مدرسة قم كانت في هذه الفترة من أوسع المدارس الشيعيّة في الفقه والحديث وأضخمها، وكانت تضمّ مئات المدارس والمساجد والمكاتب، وندوات البحث والمناقشة، ومجالس الدرس والمذاكرة.

أبرز علماء هذه المدرسة ومصنّفاتهم:

لقد حفلت مدرسة قم والريّ في القرن الرابع الهجريّ بشيوخٍ كبارٍ في الفقه والحديث. ونشطت حركة التأليف والبحث الفقهيّ، وتدوين المجاميع الحديثيّة الموسّعة.

نذكر من علماء هذه المدرسة ومصنّفاتهم:

١. **عليّ بن إبراهيم القميّ شيخ الكلينيّ في الحديث، يقول عنه النجاشيّ:** «**ثقة في الحديث ثبتٌ معتمدٌ، صحيح المذهب، سمع فأكثر، وصنّف كتباً، ... منها: قرب الإسناد، وكتاب الشرائع، وكتاب الحيض**»[١].

٢. **الشيخ محمّد بن يعقوب الكلينيّ المتوفّى سنة ٣٢٩ هـ.** كان معاصراً لعلي بن الحسين بن بابويه، والد الشيخ الصدوق، وتوفيا في سنةٍ واحدةٍ، وهي المعروفة عند الفقهاء تناثر النجوم بسنة (موت الفقهاء).

لـه كتاب الكافي في الأصول - والفروع . ويعدّ تأليفه أوّل محاولةٍ من نوعها لجمع الحديث وتبويبه، وتنظيم أبواب الفقه والأصول.

يقول رحمه الله في مطلع كتابه: «**كتابٌ كافٍ يجمع من جميع فنون علم الدين ما يكتفي به المتعلّم، ويرجع إليه المسترشد، ويأخذ منه من يريد علم الدين، والعمل بالآثار الصحيحة عن (الصادقين) عليهم السلام**»[٢].

(١) النجاشي (ت: ٤٥٠ هـ): رجال النجاشي/ مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، بقم المشرفة-إيران، ط. الخامسة ١٤١٦ هـ/ الرقم ٦٨٠ ص ٢٦٠.

(٢) الكليني: (ت: ٣٢٩ هـ): الكافي/ تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران-إيران، ط. الثالثة ١٣٦٣ هـ ش. ج١ خطبة الكتاب ص ٨.

يقول عنه الشيخ المفيد: من أجلّ كتب الشيعة، وأكثرها فائدة[1].

٣. **أبو القاسم جعفر بن محمّد بن جعفر بن موسى بن قولويه**، كان من تلامذة الكلينيّ والراوين عنه، وأستاذ الشيخ المفيد.

قال عنه النجاشيّ: «**كان من ثقات أصحابنا وأجلائهم في الحديث والفقه، ... وكلّ ما يوصف به الناس من جميلٍ وفقهٍ وثقةٍ فهو فوقه، له كتبٌ حسانٌ (عدّ منها جملةً كبيرةً)**»[2].

٤. **آل ابن بابويه:** من بيوتات الفقه والحديث في (قم)، وموضع عناية خاصّة من الحجّة القائم عجّل الله فرجه الشريف ونوّابه، ومن فقهاء الشيعة ومحدّثيهم، وكان أبرزهم الصدوق الأوّل علي بن بابويه القميّ الذي كان من رؤساء المذهب وفقهائهم الكبار. يقول عنه العلامة في الخلاصة: «شيخ القمّيين ومتقدّمهم وفقيههم وثقتهم»[3]. والابن وهو الشيخ الصدوق محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي أبو جعفر، قال عنه النجاشيّ: «**نزيل الريّ، شيخنا وفقيهنا ووجه الطائفة بخراسان ... وله كتبٌ كثيرةٌ (عدّدها)**»[4].

دوّن الشيخ الصدوق الابن مجموعته الحديثيّة الكبيرة من لا يحضره الفقيه وهو الموسوعة الحديثيّة الجامعة الثانية التي ألّفت في الفقه في هذه الفترة بمدرسة قم والريّ. وقد حاول الصدوق في موسوعته هذه أن يجمع أبعاد الفقه وينظمّه في كتابٍ، ويجمع ما صحّ لديه من أحاديث فيه، ويجعله في متناول

(١) المفيد (ت: ٤١٣ هـ): تصحيح اعتقادات الإماميّة/ تحقيق: حسين دركاهي/ منشورات دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط. الثانية ١٤١٤ هـ ص ٧٠.

(٢) النجاشي (ت: ٤٥٠ هـ): رجال النجاشي/ مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، بقم المشرفة - إيران، ط. الخامسة ١٤١٦ هـ/ الرقم ٣١٨ ص ١٢٤.

(٣) النجاشي (ت: ٤٥٠ هـ): رجال النجاشي/ مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، بقم المشرفة - إيران، ط. الخامسة ١٤١٦ هـ/ الرقم ٦٤٨ ص ٢٦١.

(٤) النجاشي (ت: ٤٥٠ هـ): رجال النجاشي/ مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، بقم المشرفة - إيران، ط. الخامسة ١٤١٦ هـ/ الرقم ١٠٤٩ ص ٣٨٩.

الفقيــه؛ أو فــي متناول مــن لا يحضره الفقيه مــن العامّة حينمــا تعرضه مسألةٌ مــن المسائل، وأحصيت أحاديث الكتاب، فكانــت خمسة آلاف وتسعمائة وثلاثة وستيــن حديثاً (٥٩٦٣)، وكان الكتاب فتحــاً ثانياً في تدوين الحديث وجمعه بعد تأليف الكافي.

ملامح المدرسة:

بلغ النشاط الفكريّ فــي التأليف والبحث الفقهيّ، وتدوين الأحاديث وجمعها وتنسيقها غايته في هذه الفترة، وترك لنا ثروةً ضخمةً من أهمّ ما أنتجته مدارس الفقه والحديث الشيعيّ، ونحن ذاكرون أهمّ ميّزات هذه المرحلة:

١. **التوسعة في تدوين الحديث وجمعه**: فقد كان تدويــن الحديث قبل هــذه الفترة - كما أشرنا إليه في الحديث عن العصــر الثاني - لا يتجاوز التدوين الشخصــيّ لمــا سمعه الــراوي من أحاديث مــن الإمام مباشــرةً أو بصورةٍ غير مباشــرةٍ، مبعثــرةً حينــاً، ومنتظمةً حينــاً آخر. ولــم يتّفق لأحدٍ مــن المحدّثين والفقهــاء في العصر الثاني أن يجمع ما صحّ في الأحكام من الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام وينظّم ذلك، كما لوحظ في (الكافي)، (ومن لا يحضره الفقيه).

وخطوة جمــع الأحاديث هذه وتنظيمهــا تعدّ من ميّزات هــذه المدرسة. فقد كثــرت حاجة الفقهــاء إلى مراجعة الروايــات والأحاديث حيــن الحاجة، وكانت الأحاديــث منتشرةً بصــورةٍ غير منظمةٍ؛ مــن حيث التبويــب والجمع، في آلاف الكتب والأصــول والرسائل التي خلفها أصحاب الأئمّة ومحدّثو الشيعة. ولم يكن مــن اليسيــر بالطبع الإلمام بمــا ورد من أحاديث فــي مسألةٍ لــكلّ أحدٍ، فكانت محاولة الجمع والتبويب في هذه الفترة لسدّ هذه الحاجة.

٢. **ظهــور الرسائــل الفقهيّــة**: ففي هــذه الفترة ظهر لونٌ جديــدٌ من الكتابة الفقهيّــة، وهي الرسائل الجوابيّة. فقد كانت الشيعــة تسأل الفقهاء من أطراف

العالم الإسلاميّ ما يعرضها من المسائل بشكل استفسارٍ، فكان الفقهاء يجيبون علــى هذه الأسئلة، وقد يطول الجواب، ويستعرض المجيب الأحاديث الواردة في الباب، فيكون من ذلك رسالةٌ جوابيّةٌ صغيرةٌ في مسألةٍ فقهيّةٍ.

٣. **تطوّر البحث الفقهيّ**: وقد كان لشيوع هذا النحو مـن الرسائل الفقهيّة دورٌ بارزٌ في تطوير البحث الفقهيّ في هذه الفترة. فكان الفقيه يدرس المسألة، وقد يلقيها علــى طلابه في مجلس الدرس، ويستعرض ما ورد فيها من أحاديث، فكانت نقطة انطلاقٍ للرأي والنظر.

لكن مع ذلــك كان البحث الفقهيّ يقضي مراحل نموّه الأوليّة في هذه الفترة، لأنّ الرسائــل الفقهيّــة لم تتجــاوز عرض الأحاديــث من غير تعرّضــ للمناقشة والاحتجــاج ونقد الآراء وبحثها، وتفريع فــروعٍ جديدةٍ عليها. ولم يتجاوز البحث الفقهــيّ في الغالب حدود الفروع الفقهيّة المذكورة في حديث أهل البيت عليهم السلام، ولم يفرغ الفقهاء بصورةٍ كاملةٍ لتفريع فروعٍ جديدةٍ للمناقشة والرأي.

٤. **تطوّر عبارة الفتوى الشرعيّة نسبيّاً**: حيث كانت الفتاوى في الغالب عبارةً عن نصوص الأحاديث مع إسقاط الإسناد وبعض الألفاظ في بعض الحالات.

فلاحظ رسالة علي بن بابويه القميّ إلى ولده الصدوق يذكر فيها فتاواه. وما كتبــه الصدوق كالمقنع والهداية. وما كتبه جعفــر بن محمد بن قولويه وغيرهم من هذه الطبقة.

خلاصة الدرس

مدرسة قم والريّ:

يبتدئ هذا العصر من الغيبة الكبرى، والربع الأوّل من القرن الرابع إلى النصف الأوّل من القرن الخامس.

في هذه الفترة انتقلت حركة التدريس والكتابة والبحث إلى مدينتيّ قم والريّ، وظهر فيها شيوخٌ كبارٌ من أساتذة الفقه الشيعيّ، كان لهم الأثر الأكبر في تطويره.

أهمّ ميّزات هذه المرحلة:

١ ـ التوسعة في تدوين الحديث وجمعه.

٢ ـ ظهور الرسائل الفقهيّة.

٣ ـ تطوّر البحث الفقهيّ.

٤ ـ تطوّر عبارة الفتوى الشرعيّة نسبيّاً.

أسئلة الدرس

١ ـ لماذا انتقلت مدرسة أهل البيت عليهم السلام من الكوفة إلى قمّ؟

٢ ـ ما هي أهمّ ميّزات مدرسة قم والريّ؟

٣ ـ عدد أبرز فقهاء هذه المدرسة؟





الدرس الثامن

المدارس الفقهيـّة الشيعيـّة (٣)
بغداد والنجف



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى مدرستي بغداد والنجف.

٢. أن يعدِّد ملامح المدرسة.



أسباب الانتقال إلى بغداد

انتقلت المدرسة من قم والريّ إلى بغداد في القرن الخامس الهجريّ، وذلك لأسبابٍ نذكر منها:

١. **ضعف جهاز الحكم العباسيّ**: حيث ضعفت سيطرتهم في هذه الفترة، ولم يجد الجهاز الحاكم القوة الكافية لملاحقة الشيعة والضغط عليهم، كما كان في زمن المنصور والرشيد والمتوكّل والمعتصم، فوجد فقهاء الشيعة سعةً للظهور ونشر الفقه الشيعيّ، وممارسة البحث الفقهيّ علانيةً.

٢. **ظهور شخصيّاتٍ فقهيةٍ كبيرةٍ**: كالشيخ المفيد والسيّد المرتضى؛ حيث كانوا يستغلّون مكانة بيوتهم الاجتماعية، ومكاناتهم السياسية في نشر الفقه الشيعيّ وتطوير دراسته.

٣. **توسّع المدرسة**: ممّا أدّى إلى سيطرة البويهيّين الشيعة في ذلك الوقت، وكانت البيئة الجديدة صالحةً لتقبّل هذه المدرسة، وتطويرها وخدمتها.

فبغداد تعتبر مركزاً ثقافيّاً كبيراً من مراكز الحركة العقليّة في العالم الإسلاميّ، يقطنها الآلاف من الفقهاء والمحدّثين، وينتشر في أرجائها آلاف المدارس والمكاتب والمساجد التي كان يحتشد فيها جماهير الطلاب والمدرّسين والعلماء كلّ يوم للدرس والمطالعة، والبحث والمناقشة، فكان لانتقال المدرسة إلى هذا الجوّ الفكريّ على يد علماء كبار أمثال المفيد والمرتضى والطوسيّ

الأثر الكبير في الحركة الفكريّة القائمة في حينه. فبعد أن تكاملت مدرسة الفقه الشيعيّ في قم والريّ وتأصّلت، وظهرت ملامح الاستقلال عليها وتبلورت أصولها وقواعدها في بغداد، ورغم كثرة مدارس البحث الفقهيّ في بغداد في ذلك الحين، كانت مدرسة أهل البيت عليهم السلام فيها أوسعها وأضخمها وأعمقها جذوراً وأصولاً وأكثرها تأصّلا واستعداداً، وأقومها في الاستدلال والاحتجاج، وكلّ ذلك كان يبعث طلّاب الفقه على الالتفاف حول هذه المدرسة أكثر من غيرها.

أبرز علماء الشيعة في مدرسة بغداد والنجف:

١. **المفيد**: أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان الملقّب بالمفيد البغداديّ (٣٣٦-٤١٣ هـ)، ولد في عكبرا، وانتقل منها في أيّام صباه إلى بغداد بصحبة والده، ونشأ فيها، وتفرغ لطلب العلم، فعرف وهو صغيرٌ بالفضل والنبوغ. استقلّ بالتدريس في بغداد وهو بعد لم يتجاوز سنّ الشباب، وتفرّغ للفقه والكلام، وكان يحضر مجلس درسه آلاف الطلاب من الشيعة والسنّة، وبرز من تلاميذه رجالٌ كبارٌ أمثال السيّد المرتضى، والشيخ الطوسيّ، ساهموا في توسعة المدرسة وتطويرها.

يقول العلامة الحلّي: «**من أجلّ مشائخ الشيعة ورئيسهم وأستاذهم، وكلّ من تأخّر عنه استفاد منه، وفضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية، أوثق أهل زمانه وأعلمهم، انتهت رئاسة الإماميّة في وقته إليه، وكان حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، له قريب من مائتي مصنّف**»[1].

٢. **المرتضى علم الهدى (٣٥٥-٤٣٦ هـ) وأخوه الرضيّ**: وهما من أبرز تلامذة الشيخ المفيد الذي عنيَ بهما عنايةً فائقة. تفرّغ المرتضى إلى الفقه بجانب تخصّصه في الأدب، وإلى جانب مؤهّلاته الفكريّة، وجهده الكبير في

(١) الحرّ العامليّ (ت: ١١٠٤ هـ): وسائل الشيعة/ مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم- إيران، ط. الثانية ١٤١٤ هـ/ ج ٣٠ الخاتمة: الفائدة الثانية عشر، ص ٤٨٥.

طلب العلم وعناية أستاذه به، ومكانة أسرته الاجتماعية والثقافيّة، لم يتوقّف عن البحث والتحقيق حتّى خلف أستاذه المفيد بعد موته، وتولّى بنفسه مهمّة التدريس، وزعامة الطائفة، واحتشد حوله الطلاب.

طوّر كثيراً من مناهج الفقه، وكتب الأصول ودرسها. وربما يصحّ اعتباره من أسبق من ارتاد هذا الحقل من حقول الفكر الإسلاميّ. وقد عدّ له السيّد الأمين قدّس سرّه في الأعيان ما يقرب من تسعين مؤلّفاً من مؤلفاته ممّا عثر على اسمه[1].

٣. **الشيخ الطوسيّ**: رئيس الطائفة وهو محمّد بن الحسن الطوسيّ (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ): ولد في طوس في شهر رمضان سنة ٣٨٥ هـ بعد أربع سنوات من وفاة الشيخ الصدوق، وهاجر إلى العراق فهبط بغداد سنة ٤٠٨ هـ وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وكانت زعامة المذهب الجعفريّ يومذاك لشيخ الأمّة المفيد، فلازمه وعكف على الاستفادة منه، حتّى اختار الله لأستاذه دار البقاء، فانتقلت زعامة الدين، ورئاسة المذهب إلى أبرز تلاميذه السيّد المرتضى، فانحاز شيخ الطائفة إليه، ولازم الحضور تحت منبره، وعني به المرتضى، وبالغ في توجيهه وتلقينه، واهتمّ به أكثر من سائر تلاميذه، وبقي ملازماً له طيلة ثلاث وعشرين سنة حتّى توفي السيد المرتضى سنة ٤٣٦ هـ، فاستقلّ الشيخ الطوسيّ بالإمامة، وأصبح علماً للشيعة وناشراً للشريعة، وقد تقاطر عليه العلماء والفضلاء للتلمذة عليه، والحضور تحت منبره، وقصدوه من كلّ بلد ومكان وبلغت عدة تلاميذه ثلاثمائة من مجتهدي الشيعة.

عايش تجربة تطوير البحث الفقهيّ والأصوليّ في ظلّ أستاذيه الكبيرين (المفيد والمرتضى)، وكانت فترة مخاض، تمخّضت عنها المدرسة الفقهيّة الجديدة، وعانى ما تتطلّب هذه الفترة من جهدٍ وتعبٍ. واستمرّ بعد

(١) راجع: الشريف المرتضى: الانتصار/ تحقيق: مؤسّسة النشر الإسلاميّ/ منشورات: مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، ط. ١٤١٥ هـ، مقدّمة التحقيق ص ٧.

أستاذيـه في تطوير المدرسـة فكانت حياة الشيخ الطوسيّ فـي مرحلتي التلمذة والتدريـس سلسلةً طويلةً من المحـاولات التجديديّة، لتطوير الفقه وصياغته من جديدٍ، وتجديد أصول الصناعة والصياغة والاستدلال فيه.

انتقـل الشيخ الطوسـيّ إلى النجف الأشرف سنة ٤٤٨ هـ حينما هجموا على داره واحرقوا مكتبته ومنبره. وظلّ ماسكاً بزمام زعامة الشيعة وهو في النجف، والتحـق به عددٌ مـن الطلّاب والعلمـاء، والتفوا حوله لتتشكّل مـن ذلك مدرسةٌ جديـدة في النجف الأشرف، مـا زالت قائمة إلى يومنا الحاضـر، وظلّ يمارس التدريـس والتأليف وتطوير مناهـج الدراسة الفقهيّة اثنتي عشرة سنةً حتّى آثره الله لدار لقائه في المحرّم سنة ٤٦٠ هـ.

ذكـر العلامة الجليل الشيخ آغا بـزرك اسماء ٤٧ مؤلّفاً للشيخ ممّا وصل إليه من أسماء مصنفاته.

ملامح المدرسة:

لقد كان البحث الفقهيّ في مدارس المدينة والكوفة وقم، لا يخرج عن حدود استعراض السنّة، ونقل الحديث، ولم يبلغ رغم تطور المدرسة في عهودها الثلاثة مرحلـة الرأي والاجتهـاد. ويلمس الباحـث لأوّل مرّةٍ آثار الصناعـة والصياغة الفنيّـة، والاجتهـاد والرأي، في هـاتيـن المدرستين، لا سيما فـي كتابات السيّد المرتضـى الأصوليّة، وكتب الشيـخ الطوسيّ الفقهيّة والأصوليّـة، ولعلّ من أبرز ملامح هـاتين المدرستين:

١. **خروج الفقه عن الاقتصار على استعراض نصوص الكتاب**: وما صحّ من السنّة إلى معالجة النصوص، واستخدام الأصول والقواعد: فقد انقلبت في هذه المدرسة عمليّة الاستنباط إلى صناعةٍ علميّة[١] لها أصولها وقواعدها.

(١) من الطبيعيّ أن الصناعة الفقهيّة في هذه الفترة كانت تطوي مراحلها البدائيّة، ولكنها مع ذلك كانت بدايةً لعهدٍ جديدٍ، وخاتمة لعهد مضى.

٢ . فصل البحث الأصوليّ عن البحث الفقهيّ، وإفراده بدراسات ومطالعاتٍ خاصّة: فقد قام السيّد المرتضى لأوّل مرّةٍ بمحاولةٍ جديدةٍ تهدف لدراسة المسائل الأصوليّة منفصلةً عن الفقه بصورةٍ موضوعية، ونقّح المسائل الأصوليّة في كتبٍ ودراساتٍ مستقلّةٍ، إلا أنّها كانت مع ذلك بدائيّةً ولم تتجاوز في غالب الأحوال مباحث الألفاظ؛ من الأوامر والنواهي ودلالات هيئات الألفاظ وموادها.

٣.تفريع المسائل الفقهيّة واستحداث فروعٍ جديدة: لم تتعرّض لها نصوص الروايات. فبعد أن كان البحث الفقهيّ لا يتجاوز حدود بيان الحكم الشرعيّ باستعراض الروايات الواردة في الباب، أخذت تُطرح وتُعالج فروع جديدةٌ لم تتعرّض لها الروايات، وربما يصحّ القول: إنّ الشيخ الطوسيّ كان أوّل من قام بهذه التجربة في كتابه المبسوط[١].

٤ . ظهور الفقه المقارن أو الفقه الخلافيّ: وذلك بعد أن تمركزت المدرسة الشيعيّة في الفقه في بغداد، وفرضت وجودها العلميّ على سائر المدارس العلميّة، ممّا أثار حفيظة أصحاب المذاهب الفقهيّة الأخرى، وأعلنوا المعارضة بوجه المدرسة، وأثاروا المسائل الخلافيّة بصورةٍ حادّةٍ، ممّا أدّى إلى اصطدام فقهاء الشيعة بفقهاء المذاهب الأخرى، في الندوات والمجالس العامّة حول المسائل الفقهيّة الخلافيّة. ومهما كانت الدوافع لإثارة هذه المسائل، فقدت أدّت إلى خصوبة البحث الفقهيّ، واتساع رقعة الخلاف بين المذاهب الإسلاميّة، وتفرّغ بالتالي فقهاء الشيعة لبحث المسائل الخلافيّة بصورةٍ موضوعيّةٍ.

ظهر هذا النوع من البحث الفقهيّ لأوّل مرّةٍ على يد المفيد والمرتضى والطوسيّ، وتوسّع الشيخ الطوسيّ بشكل خاصّ في دراسة هذا الجانب من

(١) راجع مقدّمة الشيخ على كتابه المبسوط.

البحث الفقهيّ في كتابه الكبير الخلاف، الذي تناول فيه المسائل الفقهيّة الشيعيّة والسنّيّة، في مختلف أبواب الفقه، وتعرّض لأدلّة كلا الطرفين، وناقش آراء المذاهب الأخرى في كثير من المسائل[١].

٥. **ظهور الإجماعات**[٢] **والاستدلال بها**: فإنّ توسّع البحث الفقهيّ وتكامله دفع الفقهاء إلى استكشاف أدلّة جديدةً للاستنباط، في الأمور التي لم يجدوا في موردها نصّاً، أو لم يقتنعوا بسلامة النصّ من حيث السند، أو الدلالة، فوجدوا في إجماع فقهاء المذاهب عامّة، أو فقهاء الطائفة في عصر واحدٍ دليلاً على وجود نصٍّ شرعيٍّ يجوز الاعتماد عليه، إذ من غير الممكن أن يجمع فقهاء المذاهب على حكمٍ دون وجود نصٍّ عليه أو دليلٍ على سلامة الحكم. وقد ظهر الاحتجاج بالإجماع بصورةٍ واضحةٍ في كلمات السيّد المرتضى والشيخ الطوسيّ بصورةٍ خاصّة. وهناك تبريرات أخرى لوجود هذه الإجماعات نوكل دراستها لمراحل أعلى إن شاء الله لمن أراد التوسّع.

(١) رغم قدم الكتاب فإنّه قيّمٌ لدرجة أنّه لا يستغني عنه باحثٌ فقيه.

(٢) تقدّم الكلام عن معنى الإجماع والخلاف فيه وذلك في مدخل إلى علم الأصول.

خلاصة الدرس

مدرسة بغداد والنجف: انتقلت المدرسة الفقهيّة من قمّ إلى بغداد، بسبب ضعف جهاز الحكم العبّاسيّ وظهور شخصيّات فقهيّة كبيرة هناك، وتقبّل البيئة المحيطة لهذه المدرسة، ثمّ بعد ذلك إنتقلت إلى النجف الأشرف من خلال الشيخ الطوسي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ملامح مدرسة بغداد والنجف:

١ ـ معالجة النصوص، واستخدام الأصول والقواعد.

٢ ـ انفصال البحث الأصوليّ عن البحث الفقهيّ.

٣ ـ تفريع المسائل الفقهيّة واستحداث فروعٍ.

٤ ـ ظهور الفقه المقارن أو الفقه الخلافيّ.

٥ ـ ظهور الإجماعات والاستدلال بها.

أسئلة الدرس

١ – ما هو السبب في ظهور واشتداد مدرسة بغداد ؟

٢ – ما هي أهم ملامح مدرسة بغداد والنجف؟

٣ – عدِّد أبرز فقهاء هذه المدرسة؟





الدرس التاسع

المدارس الفقهيّة الشيعيّة (٤)
الحلّة



أهداف الدرس

1. أن يتعرّف الطالب إلى مدرسة الحلّة.
2. أن يتبيّن أهم ملامح هذه المدرسة.





نشأة المدرسة:

بـرزت مدرسة الحلّة الفقهيّة بعد احتلال بغداد على يد هولاكو التتار، عندها أوفـد أهـل الحلّـة وفداً إلـى قيادة الجيش المغولـيّ يلتمسون الأمـان لبلدهم، فاستجـاب لهم هولاكو، وآمنهم على بلدهم بعد أن اختبر صدقهم. وبذلك ظلّت الحلّـة مأمونةً من النكبـة التي حلّت بسائر البلاد في محنـة الاحتلال المغولي، وأخذت تستقطب الشاردين من بغداد من الطلاب والأساتذة والفقهاء، فاجتمع فيهـا عددٌ كبيرٌ من الطـلاب والعلماء، وانتقل معهم النشـاط العلميّ، واحتفلت بما كانت تحتفل به بغداد من وجوه النشاط الفكريّ؛ من ندوات البحث والجدل، وحلقات الدراسة والمكتبات والمدارس، وغيرها، وظهر في هذه المدرسة فقهاءٌ كبـارٌ كان لهـم الأثر الكبير في تطوير مناهج الفقـه والأصول الإماميّة، وتجديد صياغة عمليّة الاجتهاد، وتنظيم أبواب الفقه، نذكر منهم:

أبرز علماء مدرسة الحلّة:

١. **المحقّـق الحلّـي**: نجم الديـن أبو القاسم جعفر بـن سعيد الحلّيّ (ت: ٦٧٨هـ)، رائـد مدرسة الحلّـة الفقهيّـة، ومن كبـار فقهاء الشيعـة قال عنه تلميذه ابن داود: «**الإمام العلامة واحد عصره، كان ألسن أهل زمانه، وأقومهم بالحجّـة وأسرعهـم استحضـاراً،... كان مجلسـه يزدحم بالعلمـاء والفضلاء ممن كانوا يقصدونه للاستفادة من حديثه، والاستزادة من علمه**»[١].

(١) الحليّ ـ ابن داوود: رجال ابن داوود/ تحقيق وتقديم: محمد صادق آل بحر العلوم/ منشورات: مطبعة الحيدريّة ـ النجف الأشرف، ط. ١٩٧٢ م. الرقم ٣٠٤ ص ٦٢.

قـدّر للمحقّق الحلّيّ أن يجدّد كثيراً في مناهج البحث الفقهيّ والأصوليّ، وأن يكون رائد هذه المدرسة. ويكفي في فضله على المدرسة الفقهيّة أنّه ربّى تلميذاً بمستـوى العلامة الحلّيّ، وخلّف كتباً قيّمةً فـي الفقه لا يزال الفقهاء يتناولونها، ويتعاطونهـا باعتزازٍ ككتـاب: شرايع الإسلام، وكتـاب المختصر النافع، وكتاب المعتبـر فـي شرح المختصـر، وكتاب نكـت النهاية، وكتاب المعـارج في أصول الفقه وغيرها.

٢. **العلامة الحلّيّ**: جمال الدين حسن بن يوسف بن علي بن المطهّر، (٦٤٨ ـ ٧٢٦ هـ). تتلمذ في الفقه على خاله المحقّق الحلّي، وفي الفلسفة والرياضيّات على المحقّق الطوسيّ، فنشأ كما أراد أستاذاه، وظهر على أترابه وزملائه وعرف بالنبوغ وهو بعد لم يتجاوز سنّ المراهقة، وانتقلت الزعامة في التدريس والفتيا إليه بعد وفاة خاله المحقّق.

قدّر للعلامة الحلّيّ بفضل ما أوتي من نبوغ، وبفضل أستاذيه الكبيرين المحقّق والشيـخ، وجهوده الخاصّـة، أن يساهم مساهمةً فعّالةً فـي تطوير مناهج الفقه والأصول، وأن يوسع دراسة الفقه. وتعدّ موسوعته الفقهيّة التذكرة أوّل موسوعةٍ فقهيّـةٍ مـن نوعها في تاريخ تطويـر الفقه الشيعـيّ؛ من حيث السعـة والمقارنة والشمول، وتطور مناهج البحث.

وبلغـت مدرسة الحلّة كمالها في حيـاة العلامة، وذلك بفضل جهوده القيّمة، كمـا قدّر له لأوّل مـرّة أن يتفرغ لدراسـة المسائل الخلافيّة بيـن فقهاء الشيعة بصورةٍ مستقلّةٍ في كتابه الكبير المختلف.

٣. **فخـر المحقّقيـن**: أبو طالب محمّد بن الحسن بن يوسف بن المطهّر، من وجـوه الطائفة وأعيانها، تتلمذ على أبيـه العلامة الحلّي، ونشأ برعايته وعنايته، وقـرأ عليه مختلف العلوم النقليّة والعقليّة، وبرز في ذلك كلّه. أكمل بعض تآليف والـده العلامة ككتاب الألفين وغيره، وشـرح بعضها الآخر ككتاب القواعد. قال

فيـه الشيخ الحرّ العامليّ قدس سره: «**كان فاضلاً محقّقاً فقيهاً ثقةً جليلاً**»[١]، قام بتربية تلامذةٍ كبار في الفقه كان منهم الشهيد الأوّل رحمه الله.

٤. **الشهيـد الأوّل**: أبـو عبد الله محمّد بن الشيخ جمال الدين مكّي بن شمس الدين محمّد الدمشقيّ الجزينيّ (٧٣٤ ـ ٧٨٦ هـ).

ولد في جزين من بلدان جبل عامل، وهاجر إلى الحلّة طلباً للعلم، تتلمذ على فخر المحقّقين بالحلّة ولازمه، وتتلمذ على آخرين من تلاميذ العلامة الحلّيّ في الفقـه والفلسفة. زار مكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة، وبغداد، ومصر، ودمشق، وبيت المقدس، ومقام الخليل إبراهيم، واجتمع فيها بمشايخ العامّة، وأتاحت له هذه الأسفار نوعاً من التلاقح الفكريّ بين مناهج البحث الفقهيّ والأصوليّ عند الشيعة والسنة.

وقرأ كثيراً من كتب السنّة في الفقه والحديث، وروى عنهم حتّى قال في إجازته لابن الخازن: «**إنّي أروي عن نحو أربعين شيخاً من علمائهم بمكّة والمدينة ودار السلام بغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس ومقام الخليل إبراهيم**»[٢]. وهذا النص يدل على أنّ الشهيد الأوّل جمع بين ثقافتي الشيعة والسنّة في الفقه والحديث، ولاقح بين المنهجين في حدود ما تسمح به طبيعة المنهجين.

خلـف كتباً كثيـرةً تمتاز بروعة البيان، ودقّة الملاحظـة، وعمق الفكرة وسعة الأفـق، منها: الذكرى، والدروس الشرعيّة في فقه الإماميّـة، وغاية المراد في شرح نكت الإرشاد، واللمعة الدمشقيّة، والألفية والنفلية، وغير ذلك.

قتـل بالسيف بدمشـق، ثمّ صلب، ثمّ رجـم ثمّ أحرق بفتـوى القاضي برهان

(١) الحـرّ العاملـيّ (ت: ١١٠٤ هـ): أمل الآمل/ تحقيق: أحمد الحسينيّ/ منشورات: دار الكتاب الإسلاميّ، ط. ١٣٦٢ هـ ش. الرقم ٧٦٨ ج ٢ ص ٢٦١.

(٢) الشهيد الثاني زين الدين بن علي(ت:٩٦٥ هـ): شرح اللمعة/ منشورات مكتبة الداوري، قم ـ إيران، ط. ١٤١٠ هـ/ مقدّمة التحقيق ج ١ ص ٧٦.

الديـن المالكـيّ، وعباد بـن جماعة الشافعيّ بعـد ما حبس سنـةً كاملةً في قلعة الشام في محنةٍ أليمةٍ نعرض عن ذكرها.

ويذكر مـن علماء هذه المدرسة: يحي بن سعيـد الحلّي وابن إدريس الحلّي وابن أبي الفوارس وابن طاووس وابن ورام.

ملامح المدرسة:

كانـت مدرسة الحلّـة استمـراراً لمدرسة بغـداد، ولم يقـدّر للمدرسة، رغم ضخامـة العمل الـذي قامت بأعبائه في مجال تطوير مناهـج الدراسة الفقهيّة، أن تهـزّ مرّة أخرى مناهج الاستنبـاط، كما فعل الشيخ الطوسيّ من قبل، لكن لا يعني ذلك أن ننكر ما حققته هذه المدرسة في مجال تطوير البحث الفقهيّ بعد مدرسة بغداد. ويمكن تلخيص أهم ملامح هذه المدرسة بما يلي:

١. **تنظيم أبواب الفقه**: رغم الجهد الذي بذله الشيخ الطوسيّ في تبويب الفقه وإكثـار الفروع، واستحداثه فروعاً جديـدة، إلا أنّ الباحث يلحظ في كتب الشيخ وجميـع المتقدّمين عليه نوعاً مـن التشويش في التبويب، بينما في مدرسة الحلّة لأوّل مرّة نلتقي بكتـاب الشرايع للمحقّق الحلّيّ رحمه الله بتنظيمٍ فريدٍ لأبواب الفقه، استمرّ عليه فقهاء الشيعة إلى العصر الحاضر: قسّم المحقّق كتابه الشرايع إلى أقسام أربعة: العبادات، العقود، الإيقاعات، الأحكام[1]. وهذا تقسيمٌ رائع يجمع مختلف أبواب الفقه.

٢. **ظهـور الموسوعـات الفقهيّـة**: حيـث ألّف العلامة الحلّـيّ تذكرة الفقهاء فـي الفقه المقارن، وهو عملٌ فقهيٌّ لـم يؤلّف مثله في السعة والاستيعاب، وجمع آراء مختلـف المذاهب الإسلاميّة، وناقش بموضوعيّـةٍ وهدوءٍ لم يوجد مثله في الدراسات المقارنة الأخرى.

(١) يبتنى هذا التقسيم على القسمة الثنائيّة الدائرة بين السلب والإيجاب: فالحكم الشرعيّ إمّا أن يتقوّم بقصد القربة أم لا، والأوّل العبادات، والثاني إمّا أن يحتاج إلى اللفظ من الجانبين الموجب والقابل أو من جانب واحد، أو لا يحتاج إلى اللفظ فالأول العقود، والثاني الإيقاعات، والثالث الأحكام، وبذلك تندرج جميع أبواب الفقه في أقسام أربعة.

٣. كثر الاختلاف بين فقهاء الإماميّة أنفسهم: لابتعادهم عن عصر الإمام، واختلافهـم في سلامة الروايات من حيث السنـد والدلالة، فتشعّبت الآراء، ممّا دعا العلمـاء إلى أن يجمعوا المسائل الخلافيّة بيـن علماء الشيعة، واستعراض وجوه الاختلاف عندهم، كي يتاح للفقيه التعرّف إلى وجوه الاختلاف في المسألة، ومعرفة المسألة المتّفق عليها بين علماء الإماميّة.

لكن ظلّت مدرسة الحلّة بشكلٍ عامٍّ امتداداً لمدرسة بغداد، وتطويراً لمناهجها، وأساليبها.

٤ - قـدّر لمدرسـة الحلّـة. نتيجـة لممارسة هـذا اللون الجديد مـن التفكير والاستنبـاط. أن تمسـح عـن مدرسة بغـداد مظاهـر البدائيّـة، وأن تسوّي من مسالكها وأن توسّع الطريق للسالكين وتمهّدها لهم.



خلاصة الدرس

مدرسة الحلّة: بعد احتلال بغداد على يد هولاكو التتار، ظلّت الحلّة مأمونةً، وأخذت تستقطب الشاردين من بغـداد من الطلاب والأساتذة والفقهاء، وانتقل معهم النشاط العلميّ.

ملامح المدرسة:

١ - تنظيم أبواب الفقه بتنظيمٍ فريدٍ، استمرّ عليه فقهاء الشيعة إلى العصر الحاضر.

٢ - ظهور الموسوعات الفقهيّة.

٣ - كثـرة الاختلاف بين فقهاء الإماميّـة أنفسهم، وظهور كتب تجمع المسائل الخلافيّة بين علماء الشيعة.

أسئلة الدرس

١ - ما هي أهمّ ملامح مدرسة الحلة ؟

٢ - تحدّث عن عالم من أبرز علمائها؟

٣ - عدّد أبرز فقهاء هذه المدرسة؟



الدرس العاشر

المدارس الفقهيّة الشيعيّة (٥)
جبل عامل



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى مدرسة جبل عامل.

٢. أن يعدّد معالم هذه المدرسة.



عندما انتقل الفقه من بغداد إلى الحلّة، بعد سقوط الدولة العباسيّة، أقبل طلبة جبل عامل إلى الحلّة لتلقّي العلم من فقهائها. ومن هؤلاء الشيخ نجم الدين طمان بن أحمد العاملي، والشيخ صالح بن مشرف جدّ الشهيد الثاني، وجمال الدين يوسف بن حاتم العامليّ، والشيخ محمّد بن جمال الدين مكّي العامليّ الشهيد الأوّل، وغيرهم من علماء جبل عامل وفقهائه. وازدهرت بهم مدرسة جبل عامل وحفلت بالعلماء والفقهاء والمعاهد العلميّة، وانتقل إليها تراث مدرسة الحلّة، واجتمع فيها جمع غفير من علماء الشيعة حتّى أن الحرّ العاملي رحمه الله يقول: «**إنّ علماء الشيعة في جبل عامل يبلغون نحو الخمس من علماء الشيعة في جميع الأقطار مع أن بلادهم أقلّ من عشر عشر بلاد الشيعة**»[1]. وقد تأسّست في هذه المنطقة مجموعة من المعاهد والمدارس العلميّة، استقطبت طلبة العلم، وخرّجت جمعاً كبيراً من الفقهاء والعلماء. ونشير إلى جملة من هذه المدارس.

أ - مدرسة جزين:

من أبرز معاهد هذه المنطقة العامرة والحافلة بالفقهاء والعلماء. وقد تأسّست وازدهرت هذه المدرسة على يد الشهيد الأوّل. إلا أنّ جزين كانت قبل الشهيد معروفة بمن فيها من العلماء، منهم والد الشهيد جمال الدين مكّي

(١) راجع: العاملي، محمّد بن علي (ت: ١٠٠٩ هـ): مدارك الأحكام/ مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم-إيران، ط. الأولى ١٤١٠ هـ/ مقدّمة التحقيق ج ١ ص ١١.

بـن محمّـد العاملي الجزّيني. يقـول عنه الحرّ في (الأمـل) : «**كان من فضلاء المشايخ في زمانه ومن أجلّاء مشايخ الإجازة**»[١].

ازدهـرت المدرسة على يد الشهيد رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ وكان الشهيـد يمارس التدريس فيها بنفسـه، ويعطيها مـن اهتمامه وجهده ووقته الكثير. كمـا عمل الشهيد رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ في هـذه الفتـرة على تنظيم علاقة الأمّـة بالفقهاء من خلال شبكـة الوكلاء الذين ينوبـون عـن الفقهاء في تنظيم شـؤون الناس في دينهم ودنياهـم، كما يقومون بجمع الحقوق المالية الشرعية لتوزيعها على مستحقّيها بنظر الفقيه[٢].

ونمـت وتطـوّرت مدرسة جزين بعـد شهادة الشهيـد رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ ، واستقطبت طلبة العلم من مناطق مختلفة. وأصبح جبل عامل بفضل هذه المدرسة وجهود الشهيد مركزاً للإشعاع الفكريّ في بلاد الشام خاصّةً، والعالم الإسلاميّ عامّةً[٣].

ب -مدرسة جباع:

مـن المدارس الفقهيّة المعروفة في جبل عامـل. درس فيها الشيخ صالح بن مشـرف العامليّ الجبعـيّ، وهو جدّ الشهيـد الثاني، والشيخ نـور الدين علي بن أحمـد بن محمّـد العامليّ الجبعيّ، والد الشهيد الثانـي المعروف بابن الحاجّة، والشهيد الثاني ٩١١ـ٩٦٦ هـ، حضر فيها المقدّمات على والده الشيخ نور الدين، ثـمّ هاجر بعد وفاة والده جباع إلى ميس وحضر فيها على الشيخ الجليل علي بن عبـد العالـي الميسيّ سنة ٩٢٥ هــ، واستمرّ في الحضور عنـده إلى سنة ٩٣٣ هـ ثـم هاجر إلى كرك نـوح وحضر فيها على السيّد حسن ابن السيّد جعفر صاحب

(١) الحـرّ العاملـيّ (ت: ١١٠٤ هـ): أمل الآمل/ تحقيق: أحمد الحسينيّ/ منشورات: دار الكتاب الإسلاميّ، ط. ١٣٦٢ هـ ش. الرقم ١٩٩ ج ١ ص ١٨٦.

(٢) المعـروف أنّ الشهيـد الأوّل رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ هو أوّل من أسّس هذا التنظيم، الذي يربط الفقيه المتصدّي بالأمة بواسطة شبكة من الوكلاء، واستمرّ هذا التنظيم فيما بعد ونما وتطوّر على أيدي الفقهاء الذين تصدّوا لشؤون الناس إلى اليوم الحاضر.

(٣) وممّا يذكر في حجم مدرسة جبل عامل الفقهيّة في هذه المرحلة: أنّ فاطمة بنت الشهيد لمّا توفيت في قرية جزين حضر تشييعها سبعون مجتهداً من جبل عامل.

كتاب المحجّة البيضاء، وقرأ عليه الفقه والأصول والحديث والكلام والأدب، ثمّ عـاد إلى جبـاع في سنة ٩٣٤ هـ، وبقي فيها يتعاطى العلـم إلى سنة ٩٣٧ هـ حيث هاجر منها إلى دمشق ليكمل دراسته فيها.

وعـاد إلى جبـاع مرّة أخرى سنة ٩٣٨ هـ وأقام فيهـا إلى سنة ٩٤١ هـ يمارس التدريس والتوجيه والتأليف، وفي هذه السنة غادر جباع إلى دمشق حيث حضر فيهـا على علماء أهل السنّة، فاجتمع بالشيخ شمس الدين بن طولون الدمشقيّ الحنفـيّ وقرأ عليه جملةً من الصحيحين، وأجازه روايتهما معاً. ثمّ غادر دمشق إلى مصر سنة ٩٤٣ هـ ، فاجتمع في مصر بجمع من أعلام مصر وفقهائها، قرأ عليهم واستفاد منهم، ثمّ عاد الشهيد إلى جباع في حدوده سنة ٩٣٥ هـ وازدهرت بعودته مدرسة جباع بعد ضمور وخمول.

من أعلام مدرسة جباع:

جمال الدين أبو منصور الشيخ حسن بن زين الدين المشهور بالشهيد الثاني (٩٥٩ـ١٠١١ هــ)، مـن كبار فقهاء الشيعة، اشتهـر بكتابه القيم (معالم الدين ومـلاذ المجتهديـن)، حضر عنـد السيّد علـي الصائغ والسيّد علـي نور الدين الكبير ـ والـد السيّد محمّد صاحب (المدارك)، والشيخ حسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائيّ، واختص بالسيّد علي الصائغ، وكان أكثر دراسته في العلوم العقليّـة والنقليّة عليه. واستفاد من إقامـة الشيخ عبد الله اليزدي رَحِمَهُ اللهُ صاحب (حاشيـة التهذيـب) في هـذه المنطقة فقرأ عليـه هو وابن اختـه السيّد محمّد صاحـب (المـدارك)، ثمّ هاجر هـو وصاحب (المدارك) إلـى النجف وحضرا عند المولى المقدّسـ الأردبيليّ في الفقه والأصول، ثمّ رجعا إلى جباع. واستقلّ صاحب (المعالم) الشيخ حسن بعد عودته إلى جباع في التدريس، وألف مجموعةً من الكتب.

ج - مدرسة كرك نوح:

كـرك نوح مدينـةٌ صغيرةٌ تقع في البقاع الأوسط، وفيهـا قبر ينسب إلى نبيِّ الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانت من أكثر المدارس الفقهيّة خصوبةً وعراقةً في جبل عامل ولبنان. نشأ فيهـا وتخرّج منها في القرن العاشر الهجريّ والقرن الحادي عشر جمعٌ غفيرٌ مـن الفقهاء والعلماء. ومنها كان الفقهاء من أمثال المحقّق الكركي ينطلقـون إلى إيران فـي العهد الصفـويّ ليشاركوا في نشر مذهـب أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وترسيخه في إيران وتثقيف المسلمين فيها.

معالم مدرسة جبل عامل:

حقّقـت هذه المدرسة إنجازاتٍ كبيرةٍ وعلى درجـةٍ عاليةٍ من التطوّر في عدّة مجالاتٍ.

١. **فـي الحديـث**: فقـد تـمّ في هـذه المدرسة تنقيـح كتب الحديـث الأربعة الشهيـرة، وأفرزت الصحاح والحسان منها عن الموثقات والضعاف. وقد نهض بهـذا المشروع أبو منصور جمال الدين الشيخ حسن المعروف بصاحب المعالم وهـو نجل الشهيد الثاني (رحمهما الله)، في كتابه منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان[١].

٢. **فـي أصـول الفقه**: فقد ألّف أيضاً الشيخ حسـن نجل الشهيد الثاني كتاب (**معالـم الدين وملاذ المجتهدين**) وهو من أفضل ما كتب في الأصول. ويمتاز هـذا الكتـاب بتحريـر المسائل الأصوليـة وتنظيمهـا وتبويبها ضمـن مقدّمات ومطالـب. وقد حظي هذا الكتاب نظراً لاختصاره وتركيزه واحتوائه على أمّهات المسائل الأصوليّة بشروحٍ وتعليقاتٍ كثيرةٍ.

(١) هـذا الكتـاب يعتبر التطبيق العمليّ للنظريّة التي تـمّ وضعها في مدرسة الحلّة على يد السيّد ابن طاووس والعلامة الحلّيّ في التقسيم الرباعيّ للحديث إلى الصحيح والحسن والموثّق والضعيف.

٣. **فـي البحـث الفقهـيّ**: كتاب اللمعـة الدمشقيّة للشهيـد الأوّل، وشرح هذا الكتاب الشهيد الثاني بكتابه (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية).

وهـذا الكتاب مختصر جليل في الفقه يتميّز بمتانة الاستدلال وتركيز الدليل وتجنـب الخوض في المناقشـات المطولة للآراء وروعة البيـان وجمال التعبير. وكلّ ذلـك كان سبباً ليدخل هذا الكتاب في المنهـاج الدراسيّ للحوزات العلميّة في الفقه إلى اليوم الحاضر.

٤. **فـي مجـال تدويـن القواعد الفقهيّة**: وهي عبارةٌ عـن أحكامٍ كليّةٍ تندرج تحت كلّ منها تطبيقاتٌ جزئيّةٌ من أبوابٍ مختلفةٍ من الفقه أو من بابٍ واحدٍ من أبوابه، وهي كثيرةٌ وتعتبر من أهمّ مصادر الاجتهاد.

فقـد تمّ فـي مدرسة جبل عامل تدويـن القواعد الفقهيّـة لأوّل مرّة في تاريخ مدرسة أهل البيت عليهم السلام. وكان الشهيد الأوّل أوّل من نهض بهذا المشروع الفقهيّ بصورةٍ منهجيّة، وذلك في كتابه القيم الجليل (القواعد والفوائد). وهذا الكتاب يحتـوي على مـا يقرب من ثلاثمائة وثلاثين قاعدة، ومـا يقرب من مائة فائدة، ويبحـث الشهيد هذه القواعد في كثير من الأحيان بصورة مقارنة بين المذاهب المختلفة، يستعرض فيها الآراء ويخضعها لمناقشة علميّةٍ دقيقةٍ.



خلاصة الدرس

مدرسة جبل عامل: بعد سقوط الدولة العباسيّة، أقبل طلبة جبل عامل إلى الحلّة لتلقّي العلم من فقهائها. فازدهرت مدرسة جبل عامل وانتقل إليها تراث مدرسة الحلّة، ومن معاهدها : جزين، جباع، وكرك نوح.

معالم مدرسة جبل عامل:

١ ـ تنقيح كتب الحديث الأربعة ، وفرز الصحيح عن الضعيف.

٢ ـ ظهور كتاب (معالم الدين وملاذ المجتهدين)..

٣ ـ ظهوركتاب اللمعة الدمشقيّة وشرحه.

٤ ـ تدوين القواعد الفقهيّة.

أسئلة الدرس

١ – ما هو الأمر التأسيسي الذي قامت به مدرسة جبل عامل ؟

٢ – تحدّث عن الشهيد الأوّل؟

٣ – عدّد المدارس الموجودة في جبل عامل.



الدرس الحادي عشر

المدارس الفقهيّة الشيعيّة (٦)
أصفهان - كربلاء



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى مدرسة أصفهان.

٢. أن يستظهر ملامح هذه المدرسة.

٣. أن يتعرّف إلى مدرسة كربلاء.

٤. أن يتبيّن ملامح مدرسة كربلاء.



مدرسة أصفهان:

انتقلت مدرسة جبل عامل إلى أصفهان في أيّام الصفويين، وذلك لسببين رئيسين هما: اضطهاد العثمانيين لفقهاء الشيعة في الشام من جهة، وحاجة الصفويّين الشيعة إلى الفقهاء لتولّي شؤون القضاء والفتيا، والتوجيه، وتكريس علاقة الدولة بفقه أهل البيت عليهم السلام من الناحية الفقهيّة والثقافيّة، وتغطية الجانب الشرعيّ للدولة، من جهةٍ ثانيةٍ.

الكركيّ والدولة الصفويّة:

في أواسط القرن العاشر الهجريّ استجاب أوّل فقيهٍ عامليٍّ لدعوة الصفويّين وهو المحقّق الكركيّ وهو الشيخ نور الدين علي بن الحسين بن عبد العالي الشهير بالمحقّق الثاني. التقى المحقّق بالشاه إسماعيل الصفويّ في (هرات) إبّان فتحه لها في قمّة مجده العسكريّ وانتصاراته، وبارك له هذا النصر واستقبله الملك المنتصر في نشوة فتوحاته العسكريّة باحترامٍ وتقديرٍ كبيرين، وطلب منه أن ينتقل معه إلى إيران ليتولّى شؤون الدولة الشرعيّة والفقهيّة بموجب مذهب أهل البيت عليهم السلام.

واستطاع المحقّق الكركيّ أن يقنع جمعاً من زملائه وأصدقائه وتلاميذه في جبل عامل بالهجرة إلى إيران، والإفادة من هذه الفرصة السانحة لنشر وتكريس فقه أهل البيت عليهم السلام، وبسط نفوذ الفقهاء في هذه الدولة الفتيّة. واستطاع فعلاً

أن يحقّق خلال هذه الفترة أهدافه بصورة جيّدة، ونجح في بسط نفوذ المؤسّسة الفقهيّة إلى حدٍّ بعيدٍ، ممّا جعل النافذين في البلاط الملكيّ يتضايقون منه بصورةٍ أو بأخرى، وأدّى ذلك فعلاً إلى برودٍ ملحوظٍ في علاقة المحقّق ببعض أجنحة البلاط، فآثر المحقّق مغادرة إيران إلى العراق، والعودة إلى النجف مرّة أخرى، لمعاودة نشاطه الفقهيّ في هذه المدينة المقدّسة، بجوار مرقد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

مكث المحقّق قرابة ستّ سنوات في النجف توفّي خلالها الشاه إسماعيل، وخلف على الملك ابنه طهماسب. ويبدو أن الفراغ الذي خلّفه المحقّق الكركي من بعده أضرّ بالدولة، وكان الجمهور يطالب بإلحاحٍ بعودة المحقّق الكركي إلى إيران، فلم يجد الشاه بديلاً عن المحقّق مما جعله يطلب من المحقّق العودة إلى إيران لتسلّم منصب شيخ الإسلام في عاصمة ملكه (أصفهان). فاستجاب المحقّق للدعوة ورجع إلى أصفهان عاصمة الصفويّين بصفة (نائب الإمام)، وهذه الصفة تمنحه بطبيعة الحال الولاية المطلقة في شؤون النظام والأمّة، وتجعل مشروعيّة النظام تابعةً لإذن الفقيه. وأقرّ النظام الصفويّ للمحقّق بهذه الولاية المطلقة النائبة عن ولاية الإمام، وصرح له الملك «**بأنّ معزول الشيخ لا يستخدم، ومنصوبه لا يعزل**»[1].

كان وفود المحقّق الكركيّ على عاصمة الصفويّين بدايةً لهجرةٍ واسعةٍ من قبل فقهاء جبل عامل، والمراكز الفقهيّة العامرة الأخرى في ذلك التاريخ مثل البحرين. فقدم إلى إيران جمعٌ من كبار الفقهاء العامليّين نذكر منهم:

الشيخ حسين بن عبد الصمد - والد الشيخ البهائيّ -، والشيخ علي المنشار،

(١) ولا شكّ أنّ هذا حدثٌ جديدٌ في تاريخ فقه أهل البيت. ولأوّل مرّة في التاريخ يتصدّى فقيهٌ إماميٌّ لشؤون الولاية العامّة، من موقع السيادة والولاية الشرعيّة نيابةً عن الإمام.

وكمال الدين درويش محمّد العامليّ، والشيخ لطف الله الميسيّ العامليّ، والشيخ الحرّ العامليّ صاحب موسوعة (وسائل الشيعة)، وغيرهم ممّن ذكرهم الحر العامليّ رحمه الله في كتابه (أمل الآمل)، وهؤلاء الفقهاء وضعوا أساساً متيناً لمدرسة إصفهان الفقهيّة.

ثمّ نبغ من هذه المدرسة فقهاءٌ ومحدّثون، وفلاسفةٌ كبارٌ أمثال:

الشيخ البهائيّ، والعلامة المجلسيّ (الأبّ)، والعلّامة المجلسيّ (الابن)، والسيّد محمّد باقر الداماد، وصدر المتألّهين الشيرازيّ، والفيض الكاشانيّ، والملّا عبد الله الشوشتريّ.

ملامح مدرسة أصفهان:

١ ـ برز الفقه السياسيّ والاجتماعيّ بصورةٍ ملحوظةٍ، وأصبح من مسؤوليّة الفقهاء الإجابة الفقهيّة على كثيرٍ من الأسئلة التي كان يطرحها الولاة، والحكّام والقضاة، في مسائل الولاية والحكم والقضاء. وتناول الفقهاء هذه المسائل بالدراسة المستقلّة ضمن رسائل فقهيّة مستقلّة.

٢ ـ أنجز المحدّثون المجاميع والموسوعات الحديثيّة، ومن أهمّها:

أ – كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسيّ.

ب – وسائل الشيعة للحرّ العامليّ.

ج – الوافي للفيض الكاشانيّ.

حفظت لنا هذه المجاميع ما تبقى من الكتب والأصول الحديثيّة، ولولاها لاندثر الكثير من تراث أهل البيت في الأصول والفروع والتفسير والأخلاق والمعارف الإسلاميّة الأخرى.

مدرسة كربلاء:

كانـت في كربلاء مدرسـةٌ فقهيّةٌ محدودةٌ قبـل القرن الثالـث عشر بموازاة مدرسـة الحلّة ومدرسة جبل عامـل ومدرسة أصفهان. وكان فـي هذه المدرسة فقهاءُ وعلماءُ كبارٌ أمثال:

الشيـخ أحمـد بن فهد الحليّ مـن أقطاب الفقه والحديـث، والشيخ إبراهيم الكفعمـيّ من أعـلام الفقه والحديث وصاحـب التآليف القيّمـة، والسيّد حسين بـن مساعد الحائريّ في القرن التاسع الهجـريّ، والسيّد ولي الحسين الحائريّ صاحـب كتـاب مجمع البحريـن، والمولى القاضـي محمّد شريـف الكاشف في القرن الحادي عشر الهجريّ، والسيّد نصر الله الحائريّ الفقيه الأديب الشاعر المعـروف في القرن الثالث عشـر، وغيرهم من أعلام الفقـه والأدب والحديث والتفسير في هذه المدرسة العلمية.

أبرز علماء المدرسة:

شهـدت هذه المدينة فـي القرنين الثاني عشـر والثالث عشر نشاطـاً فقهيّاً واسعاً، وزخرت بفقهاء كبار أمثال:

الشيـخ يوسـف صاحب الحدائـق، والوحيـد البهبهاني، والسيّـد مهدي بحر العلـوم والمولـى محمّد مهدي النراقـي صاحب مستند الشيعـة، والسيّد مهدي الشهرستانيّ، والسيّد علي الطباطبائيّ صاحب الرياض، والسيّد محمّد المجاهد الطباطبائـيّ، والشيخ شريف العلماء، والشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ صاحب الفصول، والسيّـد إبراهيم القزوينيّ صاحب الضوابـط، والمولى محمّد صالح البرغانيّ، وغيرهم من أساطين العلم، وأعلام الطائفة.

ويبدو أنّ مدرسة كربلاء بدأت تتّسع في النكبة التي أصابت أصفهان في فتنة

محمود الأفغانيّ، وأخذت تستقطب طلبة العلم والفقهاء والعلماء والمدرّسين.

وأمّا الشيخ يوسف البحرانيّ فمن أبرز الأسماء اللامعة في هذه المدرسة، وهو مؤلّف الموسوعة الفقهيّة القيمة الحدائق الناضرة، حلّ بكربلاء بحدود عام ١١٦٩ هـ فحفّ به طلاب العلم، وارتشفوا من نمير علمه العذب، وتسلّم في كربلاء زعامة التدريس والزعامة الدينيّة، وبقي في هذه المدينة قرابة عشرين عاماً حتّى وافاه الأجل فيها. وكان من زعماء المدرسة الأخباريّة في طريقة استنباط الحكم الشرعيّ. وكانت هذه الطريقة يومئذ هي الطريقة المعروفة في أوساط المدارس الفقهيّة للشيعة الإماميّة.

تخرّج على يده خلال هذه المدّة عددٌ من كبار الفقهاء أمثال:

أبي علي الحائريّ صاحب منتهى المقال، والميرزا القميّ صاحب القوانين، والسيّد علي الطباطبائي الحائريّ صاحب الرياض، والسيّد مهدي بحر العلوم صاحب الفوائد الرجالية، والمولى أحمد النراقي مؤلف مستند الشيعة، والسيّد ميرزا الشهرستاني، والسيّد ميرزا مهدي بن هداية الله الأصفهانيّ الخراسانيّ الشهيد.

ونزل بكربلاء الشيخ محمّد باقر الوحيد البهبهانيّ، وكان نزوله بهذه المدينة إيذاناً بمرحلةٍ جديدةٍ في الاتجاه الفقهيّ في مدرسة كربلاء. فقد بدأ الوحيد عمله الفقهيّ بالدعوة إلى الاتجاهَ الأصوليّ، والاجتهاد، ومواجهة المدرسة الأخباريّة، التي كان يتزعمها آنذاك الملا أمين الاسترآبادي، الذي كان شديد التعصّب لهذه الحركة، وأخيراً وبعد صراعٍ فكريٍّ طويل، نجح الوحيد في رسالته العلميّة وأبرز الاتجاه الأصوليّ، واستقطب خيرة تلامذة الشيخ يوسف البحرانيّ وجمعهم حوله، وساعده على ذلك اعتدال الشيخ يوسف في الموقف بين المدرستين، وموقعيّة الشيخ العلميّة والاجتماعيّة، فانحسرت الحركة الأخباريّة وانزوت، ولم تستعد نشاطها بعد ذلك التاريخ.

ملامح المدرسة:

١ ـ كانت مدرسة كربلاء في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ساحةً للصراع الفقهيّ بين المدرستين الذي انتهى إلى بروز المدرسة الأصوليّة وانحسار المدرسة الأخباريّة.

٢ ـ ظهور عدد من العلماء الذين تربّوا على يد الوحيد البهبهانيّ يحملون الفكر الأصوليّ، ممّا ساعد على غلبة هذه المدرسة ورسوخها واستمرارها.

٣ ـ كثرة المؤلفات الأصوليّة (لا سيّما للوحيد البهبهانيّ) التي يقرب عددها من الستين كتاباً، خصّص جملةً منها في ردّ الشبهات عن المدرسة الأصوليّة ودحض شبهات الأخباريين ونظرياتهم[١].

عودة مدرسة النجف الأشرف وقم المقدّسة:

بعد وفاة الوحيد البهبهانيّ سنة ١٢٠٦ هـ عاد إلى النجف قطبان كبيران من تلامذته وهما: السيّد مهدي بن مرتضى الطباطبائيّ الملقّب ببحر العلوم (ت: ١٢١٢ هـ)، والشيخ جعفر بن خضر الجناحيّ المعروف بكاشف الغطاء، نسبة لكتابه الفقهيّ كشف الغطاء. وبعودتهما ازدهرت حوزة النجف العلميّة، وقصدها الطلاب والأساتذة. وما زالت حتّى عصرنا الحاضر، رغم الظروف السياسيّة الصعبة التي مرّت على الحوزة العلميّة في ظلّ النظام البعثي العراقيّ، ممّا جعل الكثير من علماء النجف يهاجرون خارج العراق، وانتقل الكثير منهم إلى حوزة قم المقدّسة ـ التي كان قد أعاد إليها سابق مجدها الشيخ عبد الكريم الحائريّ (ت: ١٣٥٥ هـ) ـ خصوصاً بعد انتصار الجمهوريّة الإسلاميّة، وتحقيق أوّل دولةٍ تقوم على نظام ولاية الفقيه وذلك على يد مفجّر الثورة الإمام روح الله

(١) رياض المسائل، علي الطباطبائي، ص١٠٢، بتصرف.

الموسـويّ الخمينــيّ العظيم، وأصبحت الظروف مهيّـأةً لاستقبال طلاب العلوم الدينيّــة الشيعــة في ظلّ نظــامٍ شيعيٍّ، فازدهرت حوزة قم مــن جديدٍ، وهي إلى هــذا الزمن تعجّ بآلاف الطلبــة والأساتذة والعلماء الكبــار. كلّ ذلك يعود فضله للجهــود التي بذلها كبــار علمائنا للحفاظ على التشيّــع، ونهج أهل البيت عليهم السلام، حتّــى وصلت هذه الرسالة الإلهيّة إلى زماننا الحاضر كما أرادها الله وأهل بيته عليهم السلام بأيادٍ أمينةٍ، تناقلها أصحابها من جيلٍ إلى جيلٍ، باذلين في الحفاظ عليها المهج والأرواح.

خلاصة الدرس

مدرسة أصفهان: انتقلت مدرسة جبل عامل إلى أصفهان في أيّام الصفويّين، بسبــب اضطهــاد العثمانيّيــن لفقهاء الشيعــة، وحاجــة الصفويّيــن الشيعة إلى الفقهاء.

ملامح مدرسة أصفهان:

١ ـ برز الفقه السياسيّ والاجتماعيّ بصورةٍ ملحوظة.

٢ ـ إنجــاز المجاميع والموسوعات الحديثيّة، ومــن أهمّها: كتاب بحار الأنوار، وسائل الشيعة، والوافي للفيض الكاشانيّ.

مدرســة كربلاء: كانت في كربلاء مدرســةٌ فقهيّةٌ محدودةٌ قبل القرن الثالث عشر بموازاة مدرسة الحلّة ومدرسة جبل عامل ومدرسة أصفهان .

ملامح المدرسة:

١ ـ كانــت مدرســة كربلاء فــي القرنين الحــادي عشر والثاني عشــر، ساحةً للصــراع الفقهيّ بين المدرستين الذي انتهى إلى بروز المدرسة الأصوليّة وانحسار المدرسة الأخباريّة.

٢ ـ ظهــور عدد من الأصوليّين، ممّــا ساعد على غلبة هذه المدرسة ورسوخها واستمرارها.

٣ ـ كثرة المؤلفات الأصوليّة .

عودة مدرسة النجف الأشرف وقم المقدّسة:

سنة ١٢٠٦ هـ عاد إلى النجف الأشرف قطبان كبيران هما بحر العلوم وكاشف الغطاء، فازدهرت حوزة النجف العلميّة، وقصدها الطلاب والأساتذة، وما زالت حتّى عصرنا الحاضر.

وأعــاد الشيخ عبد الكريــم الحائريّ (ت: ١٣٥٥ هـ) إلى قــم المقدسة سابق مجدها. وقد اصبحت مركزاً يستقطب العلماء والطلاب من أقطار العالم نتيجة قيــام الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران من جهة ، وقســوة الظروف السياسية في النجـف الأشرف التــي انتقل الكثير مــن علمائها إلى قــم المقدّسة ، فازدهرت حوزة قم من جديــدٍ، وهي إلى هذا الزمن تعجّ بآلاف الطلبة والأساتذة والعلماء الكبار.

أسئلة الدرس

١ - ما هي أهم ملامح مدرسة أصفهان؟

٢ - ما هو الصراع الذي كان يدور في مدرسة كربلاء ولمن كانت الغلبة؟

٣- عدّد أبرز علماء مدرسة أصفهان؟

٤- تحدّث عن عودة الحوزة إلى النجف وقمّ المقدستين؟